دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

كلمة الله

شهادة وخدمة وحياة

الأب متى المسكين

كلمة الله ـــ شهادة وخدمة وحياة

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

كلمة الله

شهادة وخدمة وحياة

الأب متى المسكين

كتاب : كلمة الله : شهادة وخدمة وحياة
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى : ١٩٦٥
الطبعة الثانية : ١٩٧٥
الطبعة الثالثة : ١٩٨٥
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون.
ص. ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٤/٢٨٧٥ .
الترقيم الدولي : ٧ ــ ٠١٤ ــ ٤٤٨ ــ ٩٧٧

المحتويـــات

تقـــديم

□□□

كـلـمـة الله مجـالٌ حيٌّ يلتقي فيه الإنسان مع خالقه سراً وفي هدوء، لذلك فبقدرما نقترب من الكلمة نقترب من الله وبقدرما نعيش فيها نعيش معه.

وهذا الكتاب محاولة لجعل الكلمة قريبة لقلب الإنسان ومحبوبة، وواضح أن الكـاتـب يجهـد نـفـسـه أقـصـى الجهد ليعظّم كلمة الله في عين القارىء ويكرمها ويقدسها في كل قلب حتى يعيد للكلمة سلطانها ومجدها الأولين.

الإنسان في العالم الحديث فقد القاعدة الصلبة التي كان يستمد منها ثباته واستـقـراره على مـدى الأجيال السالفة، أي التقليد الموروث واستلام الحياة بـرُمَّتها وبكافة نواحيها من الأسرة والشيوخ وتلقين المدرسة الذي كان لا يخرج عن عرف البيئة وتراثها، وكانت كلمة الله ضمن هذا التراث وأساسه.

الإنـسـان فـقـد مـركـز استقراره وهو الآن في أشد الحاجة إلى قاعدة ثابتة تـلـهـمـه الحـيـاة وتـقـوده وتـشير عليه وتكون صاحبة سلطان يأتمر بها عن وعي ورضـى، على أن تـكـون من الرصانة والحق ما يمكنها أن ترد عنه كل انحرافات الـفـكـر الحـديث وشوائب العلم والسلوك... الحاجة إذن شديدة إلى كلمة الله فـهـي تلك القاعدة بلا نزاع في صورتها الأصيلة الشفافة التي تعلن وتلهم الحق كل الحق.

إن رسالة الكنيسة في العصر الحديث أصبحت بلا شك رسالة «الكلمة» تـعـلـنـهـا للعالم في أصالة واستنارة وشجاعة حتى يجد فيها الحل الوحيد الذي لن

يجده في سواها، فتردَّ عنه يأسه. فالعالم يتطلع اليوم رغماً عنه إلى كلمة حق واضحة مستقيمة تهديه الطريق فأين يجدها؟ العالم يطلب منا برهان صدق كلمة الله التي نؤمن بها فكيف نقدمه إلا بحياتنا؟ الحاجة اليوم أشد ما يمكن إلى برهان صدق الإنجيل، لا بواسطة بحث أصول الأسفار المقدسة ولا بتحقيق ترجماتها، ولكن بتقرُّبنا إلى الله وإعلان الإنجيل مقروءاً في سيرتنا.

لذلك نحن نتوسل إلى الرب يسوع كلمة الله ونور العقل الذي يضيء لكل إنسان يأتي إلى العالم أن يستخدم كلمات هذا الكتاب ليلهب قلب القارىء بحب الإنجيل ويفتح ذهنه لفهم كلمة الله كينبوع يرتوي منه كل حين.

كما نتوسل إلى الروح القدس روح المعرفة والفهم والمشورة والحكمة أن يرافق القارىء في قراءته لهذا الكتاب حتى يرفع عن كلماته كل عجز وقصور ويلهمه الحقيقة كما يشاءها الله.

(سنة ١٩٦٥)

الباب الأول

الشهادة للكلمة

«وتشهدون أنتم أيضاً».
(يوحنا ١٥ : ٢٧)

وحـــدة الكلمـــة

□□□

كـلمة الله أزلية، وهي المسيح متكلماً عبر الدهور «أنا هو» . الكتاب المقدس بـعـهـديـه هـو كـلمة الله «الله بعدما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه.» (١)

الله تـكـلـم بـالأنـبياء قديماً بقصد أن يكشف لنا عن نفسه وعن حبه وعن خطة الفداء والخلاص العظيم المزمع أن يقيمه.

وتـكـلّـم في ابنه أخيراً «بكل حكمة وفطنة، إذ عرّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قـصـدهـا في نـفـسـه لـتـدبير ملء الأزمـنـة، ليجمع كل شيءٍ في المسيح ما في السموات وما على الأرض.» (٢).

كـلـمـة الله في الكتاب كلّه واحدة، لأنها إعلان واحد من مصدر واحد، فالله الـذي تـكـلـم مع إبراهيم أب الآباء هو الذي تكلم معنا بنفسه، وهو هو الذي تكلم مع بـولـس آخر الرسل. وكلمته ذات قصد واحد لأن مشيئة الله بالنسبة للإنسان واحـدة مـن أول الـكـتـاب لآخـره لا فـرق ولا جـدود بين ما نعتبره قديماً وما نعتبره جـديداً فإن: «الناموس مقدسٌ والوصية مقدسة وعادلةٌ وصالحةٌ» (٣)، أو كما يقول بـطرس الرسول: «لأنه لم تأتِ نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون

---

(١) عب ١ : ١ و ٢ .

(٢) أف ١ : ٨ ــ ١٠ .

(٣) رو ٧ : ١٢ .

مسوقين من الروح القدس» (٤)، أو كما يقول القديس أغسطينوس: [حينما يتكلم أحد الأنبياء القديسين فنحن بينما نعتبر أن النبي «قال» إلا أننا لا نعني من ذلك إلا أن الله هو الذي تكلم](٥). المسيح نفسه اعتبر مجيئه استمراراً وتكميلاً للكلمة المنطوقة في العهد القديم: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل.» (مت ٥: ١٧)

أما نسبة كلمة الناموس والأنبياء لكلمة المسيح والرسل فهي كالمدخل للموضوع أو التمهيد للحقيقة، أو كما يقول القديس إيريناوس: [رؤساء الآباء والأنبياء زرعوا الكلمة التي تخص المسيح، والكنيسة حصدتها](٦). وكلٌّ منهما ضرورة للآخر يشرحه و يثبته. وهما بالنهاية كلمة الله، وفكره، ورسالته مرسلة إلى عالم واحد هو عالم الإنسان.

الوحدة الروحية القائمة بين القديم والجديد وحدة عميقة لأنها **وحدة مصدر ووحدة هدف**، إذا التفت إليها الإنسان وتعمّقها بروحه وذهنه، تلاشت الفوارق في مضمون الكلمة بين القديم والجديد. ويحقق ذلك القديس إيريناوس قائلاً: [وأنت تجد أن كل سيرة المسيح وكل تعاليمه وكل آلامه قد تنبأ عنها الأنبياء. فماذا إذن أعطانا المسيح بمجيئه؟ إعلم أنه قد أعطانا كل الجديد بمجيئه، لأنه أعطانا نفسه](٧). كذلك يقول القديس أغسطينوس: [في المسيح استُعلن العهد ولم يُنشأ إنشاءً لأنه سبق فتشكل وتصور في العهد القديم](٨). وأيضاً يوضح القديس أغسطينوس ذلك في محاجاته ضد البيلاجيين قائلاً: [هنا بالتأكيد لو سألنا إذا

(٤) ٢ بط ١: ٢١.

(5) De Trinitate III, 23.
(6) Adv. Haer. IV 25:3.
(7) Adver. Haer. IV 34:1.
(8) Contra Pelag. III 9.

كان العهد الذي أُعطي لإبراهيم في حد ذاته يُفهم أنه ذو صفة جديدة أم قديمة، فلا يتردد أحد مجيباً أنه يُحسب جديداً، غير أنه إختفى تحت إشارات ورموز الأنبياء إلى أن جاء الزمن واستُعلن في المسيح. لأنه واضح أن إيماننا ــ الذي هو قطعاً بالعهد الجديد ــ يحوي ما أعطاه الله لإبراهيم بالوعد.](٩)

والذي يجمع القديم والجديد ككلمة واحدة وإعلان واحد وروح واحد، هو يسوع المسيح «مصدر الكلمة» لأنه هو غاية الناموس والأنبياء وكل كتب العهد القديم، كما أنه هو أيضاً حقيقة الإنجيل وكل ما كُتب في العهد الجديد: [المسيحيون المؤمنون يرون أن في المسيح والكنيسة قد تحققت كل نبوات العهد القديم سواء كانت في هيئة أعمال أو طقوس رمزية ذات منطق يفيد أموراً آتية](١٠)

القديس أغسطينوس

والمسيح جاء ليعطي حياته للعالم، بالإنجيل أي بالكلمة!!
وجاء أيضاً ليصير نوراً للعالم، بواسطة الإنجيل أي الكلمة!
كذلك ليعرِّفنا بالحق بواسطة الكلمة!

إذن، فالكلمة في العهد القديم والجديد معاً صارت في المسيح يسوع ذات هدف واحد، هو أن تعطي حياةً للعالم ونوراً وحقاً!

لذلك فكل سفر في الكتاب المقدس وكل أصحاح وكل آية، هي كلمة الله، هي إعلان يسوع المسيح، هي حياة ونور وحق لكل من يؤمن بها، يزيدها وضوحاً ما قبلها وما بعدها، ولكن لا يزيدها كمالاً.

(9) Contra Pelag. III 7.
(10) Contra Faustum XVIII, 7.

كلمة الله معلنة في الكتاب كُلاً وجزءاً، ولكن ليس في حروفه وإنما في **روحه.** والذي يبلغ في وجدانه إلى وحدة الكلمة يبلغ في حياته إلى وحدة الإيمان، **لأن** الكلمة هي مصدر الإيمان.



كلمة الله كاملةٌ بلا عيب

□□□

القصور في استعلان كلمة الله والسبب في تجزيئها وتطورها من وضعٍ ضعيف لوضعٍ قوي، ومن رمزٍ لحقيقة، ومن ظلالٍ لنور، ومن عنفٍ للطف، ليس في مصدرها، فمصدرها الله وهو فائق الكمال غير متغير، كذلك ليس في غايتها فغايتها منذ البدء هي إعلان الله ومراحمه.

الإنسان وحده مسئولٌ دائماً عن قصور الكلمة وعدم استعلانها في كمالها المطلق، وذلك بسبب الظلمة والجهل اللذين صار إليهما بتسلُّط الخطيئة ووقوعه تحت نير العجز. أما كلمة الله فطبيعتها كاملةٌ في الحق والقداسة، وكمالها مطلقٌ لا يشوبه عجزٌ ولا قصورٌ ولا تطوُّرٌ.

وهذا نلاحظه بوضوح في تعليق المسيح على ضعف الوصية التي تُصرِّح بالطلاق كما أوردها ناموس موسى، إذ نجد المسيح لا ينسب هذا الضعف لطبيعة الناموس كأنه بَشَري! ولا إلى قصد الله كأنه يستخدم أسلوب التمرين بالخطأ! ولا إلى ضرورة الحال كأن الله يضطر أن ينزل إلى مستوى الحال و يشارك الخطأ بالخطأ! ولا إلى أية غاية جيدة أو معقولة أو نية صالحة يبطنها الله، ولكن ينسبه بوضوح وصراحة وشدة إلى «**قساوة قلوبكم**»[11]. وهو في إظهاره لضعف الوصية،

---

(11) مت ١٩ : ٨.

يستشهد بالمكتوب في سفر التكوين حتى يُثبت أصالة ناموس الله وكمال الكلمة (مت١٩ : ٤).

هكذا كل كلمة في الكتاب يمكن تأويلها إلى وضع ضعيف وإلى وضع قوي، وكل وصية يمكن أخذها بمأخذ سهل يناسب شهوة الجسد وروح التهاون، ويمكن أخذها بالروح لتقويم الحياة ولمجد الله. فحتى تصريح الناموس بالطلاق ـ بالرغم مما يظهر فيه من ضعف ـ إلا أننا لو تعمقنا المعنى الروحي بمقتضى الإتجاه الرمزي، نجد أنه يشير كنبوة إلى احتمال طلاق الله للشعب إن هو زاغ عن الله، الأمر الذي تم بالفعل والذي أعلنه الله بنفس الألفاظ «أين كتاب طلاق أمكم؟» [١٢]

إذن، تحت سطح الناموس والوصايا والطقوس القديمة يسري تيار روحي غاية في العمق، يستحيل أن يدركه الإنسان إذا اكتفى بالسطحيات ورؤية الناموس بمنظار الجسد فقط.

أي أن الكتاب ليس مجموعة قوانين ووصايا يمكن الإنسان أن يتمسك بحرفيتها، ولكنه كلمة الله التي تخاطب الضمير والروح، وهي كاملة بقدر ما ننظر إليها روحياً. فإذا هبطنا بالكلمة إلى مستوى الجسد وشهواته أفسدنا الكلمة وانطرحنا بعيداً عن الله.

الناموس في العهد القديم وكذلك الوصايا أيضاً لا تخلو من ضعف. هذا الضعف مصدره التزام الإنسان بالحرف دون العبور إلى الروح. وهذا عالجه المسيح في بدء تعاليمه هكذا: «قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم ...» (مت٥ : ٢١و٢٢)، لا كأنه يهدم الناموس والوصايا، بل ليدخل بالإنسان إلى الروح مصدر الإلهام.

---

(١٢) إش ٥٠ : ١.

وهذا معنى قوله: «ما جئت لأنقض بل لأكمل...» (مت ٥: ١٧)

فالمسيح جاء ليرتفع بالحرف الذي في الناموس إلى الروح الذي ألهم كاتبه، فكشف بذلك علة الفهم الخاطىء وعلة ظهور الناموس بالضعف، وأنقذ الإنسان من ورطة فهم الروحيات على مستوى جسدي.

وبمجرد أن ينكشف أمام الإنسان الروح الذي في الناموس، والحق كرمز يختبىء وراء الوصية أو الطقس، تتضاءل أمام الإنسان الصيغة الحرفية للكلمة. ولكن في نفس الوقت يزداد الإنسان خشوعاً وهيبة للناموس، إذ تبدو فيه كلمة الله عميقة وكاملة وإن بدت ضعيفة في شكلها.

والذي يستوثق من روح الناموس و يضع يده على المعاني العميقة التي تهدف إليها الوصايا، وأنواع الخِدَم المختلفة في الطقوس والعبادة، يسهل عليه أن يتجاوز الحرف ولا يقف إزاء ضعفه ــ ولا لحظة واحدة ــ دون أن يجرح الناموس في شيء! كما تجاوزها بولس الرسول بسهولة معتبراً إياها «رمزٌ للوقت الحاضر.»(١٣)

وضعف الناموس والوصايا في العهد القديم لا يتجاهله بولس الرسول: «فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طُلب موضعٌ لثان.»(١٤)

ولكن كلمة الله ليست ضعيفة وليس فيها عيب إطلاقاً، و بولس نفسه يشهد أن «الناموس مقدس والوصية مقدسة وصالحة»(١٥). إذن، هذا العيب وهذا الضعف هو في قلب الشعب وذهنه: «قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد ثقل سماعها وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا»(١٦). فالأذن التي تقبلت الكلمة عاجزة لم تدرك

---

(١٣) عب ٩: ٩.

(١٤) عب ٨: ٧.

(١٥) رو ٧: ١٢.

(١٦) مت ١٣: ١٥.

صوت الله الذي في الكلمة، والذهن الذي فهمها مقفل غير «مفتوح» لم يستطع أن يميز الروح من الجسد، والقلب مظلم حجري. و بولس الرسول كواحد منهم سابقاً يصفهم هكذا: «أُغلظت أذهانهم لأنه حتى اليوم ذلك البرقع نفسه عند قراءة العهد العتيق باقٍ غير منكشف الذي يبطل في المسيح... البرقع موضوع على قلبهم» (١٧).
كذلك فإنَّ القديس أغسطينوس يرى أنه لم يكن العيب في الناموس إنما كان فيهم، لأنهم تجاهلوا الروح وذهبوا وراء الجسد وشهواته:

[كانوا يتوقون إلى الخيرات والبركات الأرضية بسبب قساوة قلوبهم، لذلك أعطاهم الله ناموساً بالرغم من كونه روحياً إلا أنه كان مكتوباً على ألواح حجرية ... هؤلاء الذين كانوا يتبعون العهد القديم استلموا ناموساً مقدساً وعادلاً ولكنهم ظنوا أن حروفه كافية لحياتهم، وأنهم طالما هم يعملون به فلا يلزمهم أن يطلبوا رحمة الله... لذلك اعتُبروا لا أولاد الموعد ولا ورثة للعهد، وإنما أولاد الجسد ... محسوبين لأورشليم الأرضية القائمة في العبودية مع كل أولادها، هؤلاء هم «الإنسان الطبيعي الذي لا يقبل ما لروح الله» (١ كو٢: ١٤). كذلك أيضاً كل إنسان يبتدىء يستحسن مذاقة الأشياء الجسدية و يترجاها من الله مشتاقاً إليها سواء في هذه الحياة أو (يتوهمها في) الحياة الأخرى فإنه يُحسب مع أبناء العهد القديم... الذين كانوا يعيشون للجسد تحت نير خدمة العبودية.] (١٨)

وحتى إلى اليوم، فإن كل الذين لم يشرق عليهم نور المسيح لم يُرفع البرقع بعد من على قلوبهم، لذلك حينما يقرأون الكتاب — سواء العهد القديم أو الجديد — يصطدمون «بضعف» و يعثرون في «عيوب»، كأن الضعف والعيب في الكلمة مع أنها في قلب الإنسان وذهنه. الحق دائماً حجر عثرة وصخرة شك، سواء كان هو المسيح نفسه أو كلمته، وذلك للذين يقيسون الأمور بمنطق الجسد! فتلميذا عمواس

---

(١٧) ٢ كو٣: ١٤ و ١٥.

(18) Contra Pelagii III 9,10; De Gestis Pelagii 14; De Baptismo 1, 23,24; De Catech. Mudibus 8.

لم يصدقا قيامة المسيح لا لسبب إلا لأنها غير معقولة لمنطق الجسد! «أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء» (١٩). و بقية التلاميذ أيضاً لم يصدقوا شهادة الذين رأوه قائماً لأن إيمانهم كان لا يزال منحصراً في منطق المعقولات والمحسوسات، الذي اعتبره المسيح قساوة قلب مثل آبائهم: «أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون و و بخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام.» (٢٠)

المسيح بقيامته رفع البرقع من على قلب الإنسان ليفهم سر الروح الذي يقوم عليه كل الناموس والأنبياء، وفتح الذهن ليدرك الحق في كل كلمة: «ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب.» (٢١)

والقديس أغسطينوس يعتبر أن رجوع القلب إلى الله واعتزال المتع الجسدية كان هو السبيل الوحيد لكشف سر المسيح في العهد القديم:

[المسيح لم يلغ العهد القديم ولكن ألغى البرقع، فصار العهد القديم بواسطة المسيح واضحاً كأصله، بعد أن كان بدون المسيح مغلقاً ومكتوماً... لأنه طالما أعطى الشعب نفسه للمسرات والمتع الجسدية وكنزوا كنوزهم على الأرض فإنه يتكون على قلبهم البرقع الذي يخفي عنهم المسيح الكائن في الأسفار، وعلى هذا الأساس يضيف بولس الرسول قائلاً: «ولكن عندما يرجع (القلب) إلى الرب يُرفع البرقع.»] (٢٢)

إذن، لا يمكن للإنسان أن يدرك كمال كلمة الله إلا إذا انكشف له سر الروح

---

(١٩) لو٢٤: ٢٥.

(٢٠) مر١٦: ١٤.

(٢١) لو٢٤: ٢٧.

(22) De Utilitate credenti, 9; Sermo 137, 6.

والحق الذي فيها. كذلك فكمال الكلمة لا يُدرَك عفواً وإنما باجتهاد الروح والتقوى واستقامة القلب، لأن كمال الله لا يُعلَن إلا للكاملين.

وللقديس أغسطينوس نصيحة جديرة بالإعتبار: [**لنحترم كلمة الله، ونكرم** الأسفار الإلهية حتى ولو كانت غير واضحة، وفي توقير وإجلال لها **ننتظر الفهم** — لا تستهتر وتجازف بانتقاد غموضها أو ما يبدو فيها متعارضاً فليس فيها شيء يتعارض البتة. وحينما تواجه غموضاً فذلك (ينبهك) لكي تقرع فيُفتح لك.][23]

هكذا يتضح أمامنا أنه لم يكن في الأسفار عيب يمنعهم قديماً من الوصول إلى الحياة الروحية الخالصة، وإنما كان العيب في ذهن الشعب المغلق وقساوة قلبهم وبطء إيمانهم وعدم تصديقهم: «لم يثبتوا في عهدي وأنا أهملتهم يقول الرب»[24]. ولكن لم يُعدَم العهد القديم قيام رجال أتقياء وآباء روحيين وأنبياء وقديسين معتبرين ذوي قلوب نيّرة وأذهان مفتوحة وعيون مبصرة نظروا المواعيد من بعيد وآمنوا بها وحيُّوها ورأوا يوم الرب وفرحوا وتنبأوا عن المسيح ووصفوه وكأنهم معه. فحياة هؤلاء تشهد لجلال الأسفار المقدسة وروحانيتها وقداسة الناموس وكمال الكلمة.

ولكن ما بلغه هؤلاء الأنبياء والآباء والقديسون الأخصاء والقليلون جداً في العهد القديم، بلغناه نحن في العهد الجديد بصورة عامة بلا كيل وبلا ثمن مجاناً بنعمة ربنا يسوع المسيح وبعمل الروح القدس، فصارت الأعماق مكشوفة واستُعلنت كل أسرار الله في الكلمة وأدركنا كمال قصد الله ومشيئته سواء التي في الناموس أو الوصايا أو الأنبياء أو بقية الكتب المقدسة في العهدين «هذا هو العهد الذي أعهده معهم (مع بيت إسرائيل) بعد تلك الأيام يقول الرب: أجعل نواميسي

(23) Enerrat in Ps, 146, 12.

(٢٤) عب ٨ : ٩.

في قلوبهم وأكتبها في أذهانهم.» (٢٥)

ونحن الآن نعيش هذا العهد، ونقيم في نعمة «الذهن المفتوح»، ونفهم الكتب ونعيها في القلب! فلا عذر لأحد بعد إن هو لم يدرك كمال الكلمة: [إني مرتبط **بالخضوع الكلي** الخالي من الشك للأسفار القانونية **متبعاً تعليمها دون أن يخامرني أدنى شك** أنه يوجد فيها أي خطأ أو بيان يقصد منه التضليل] (٢٦)

القديس أغسطينوس

[إن المسيح بعد أن حكم بما فيه الكفاية بواسطة الأنبياء ثم بما نطقه هو بشفتيه ترك لنا بواسطة الرسل هذه الأسفار المقدسة المدعوة قانونية التي لها **السلطان المطلق** والتي نسلم بصدقها في كل شيء، هذه الأسفار هي عمل الله الصالح الكلي القدرة] (٢٧)

القديس أغسطينوس

[المسيح الذي أرسل أمامه الأنبياء قبل مجيئه، أبلغ الرسالة أيضاً للرسل بعد صعوده — وبسبب طبيعته الإنسانية التي قبلها في ذاته صار مع كل تلاميذه في علاقة كالرأس مع أعضاء الجسد — لذلك لما كتب هؤلاء التلاميذ ما أعلنه لهم وما تكلم به معهم، لم يعد ممكناً أن يُقال أن المسيح لم يكتب بنفسه شيئاً منه، لأن الحقيقة هي أن الأعضاء أتموا فقط ما تعرفوا عليه مما أملاه عليهم الرأس. فكل ما أراد المسيح أن (نعرفه) ونقرأه في موضوع أعماله وأقواله، أوحى إلى التلاميذ بكتابته مستخدماً إياهم كأنهم يديه — وكل من يدرك هذه العلاقة القائمة في هذه الوحدة وهذا التوافق في الخدمة التي تقوم بها هذه الأعضاء في انسجام كلي لأداء كل الخدمات تحت مباشرة الرأس، سوف يتقبل الرسالة من الإنجيل خلال التعاليم التي

(٢٥) عب ١٠: ١٦.

(26) Epistula 82, 24.
(27) De Cevit Dei XI, 3.

يسردها التلاميذ بنفس الروح التي يمكن أن ينظر بها إلى **يد الرب نفسه كأنها هي التي تباشر الكتابة**، لأن التلاميذ صاروا فعلاً يدين في جسده.](٢٨)

القديس أغسطينوس

ولكن القديس أغسطينوس لا يقول بحرفية الإلهام، فهويرى أن **الروح القدس يعطي حرية** للكاتب ليسجل الحقيقة بلغته كما يفهمها: [الروح القدس ترك كل مؤرخ في حرية ليبني روايته **بطريقته الخاصة**، هذا بطريقة وذاك بطريقة مختلفة.](٢٩)

---

(28) De Cons. Evang. I, 54.
(29) De Cons. Evang. II, 51.

كلمة الله غير متغيرة

□□□

كلمة الله غير محدودة ذهنياً، فهي ليست كأي موضوع آخر لأنها ذات صفات فائقة. وهي ليست ككلمة الإنسان يمكن فصلها عن الإنسان، فكلمة الله «ذاتية» تحمل **حضرة إلهية**، لذلك لا يمكن فصلها عن الله وإلا لا تصير كلمة الله.

لذلك، فإن كلمة الله لما استُعلنت للإنسان قديماً كان هذا في الواقع تنازلاً إلهياً، بمثابة **نزول شخصي**، لذلك رافقها ظهورات ليس في القلب فقط بل وفي الزمان والمكان بصورة ملموسة كما حدث لإبراهيم و يعقوب وموسى و يشوع وأيوب وإيليا وحزقيال وغيرهم.

استعلان كلمة الله للإنسان هو في الواقع معجزة المعجزات، إذ كيف يصير غير المحدود وغير الزمني ظاهراً في دائرة المحدود الزمني ومفهوماً؟! هذا في الحقيقة الذهنية حسب خبرة الإنسان ومنطقه أمر مستحيل ومذهل، هو معجزة أو هو على الأقل جداً تنازل مدهش وفائق للوصف. هذا إذا استطعنا أن نكتشف طبيعة الكلمة وقوتها ونحسها كحضرة الله!

كلمة الله هي الواسطة التي اختزلت المسافة الحتمية بين طبيعة الله الخالق وطبيعة الإنسان المخلوق، ولكن الله هو الذي باختياره عبر المسافة بالكلمة بصفتها الوسيلة الهادئة التي يستطيع أن يقترب منها الإنسان بعقله، أي بإمكانياته الطبيعية

و بإرادته الحرة، دون إقحام لشخصيته أو اضطراره للإستجابة عن انغلاب أو خوف أو تأثر بالمعجزة الحسية أو الرؤية.

ولكن بالرغم من أن كلمة الله من جوهر غير متغير وغير قابل للتطور، إلا أن اقتحامها لطبيعة الإنسان الخاضع للزمان والمكان، وتنازلها المدهش لمرافقة هذا المخلوق المتغير ــ أي الإنسان ــ على مدى مراحله الطويلة التي عانى فيها أطواراً من الجهالة والظلمة، جعل كلمة الله تبدو كأنها متغيرة وكأنها متطورة، مع أن هذا وهم، فتغيرها وتطورها صورة ظاهرية لحقيقة **اتضاعها وتنازلها**. أما الذي ظل يتغير و يتطور حتى الآن وإلى المنتهى هو أُذُن الإنسان وقلبه اللذان لا يَعِيَان ولا يسجلان من الكلمة إلا ما يناسب جهالتهما: [فيوحنا الرسول تقبل الوحي لذلك تكلم **ولكن ليس كلياً** بل بما يستطيع الإنسان أن ينطقه](٣٠)

ولكن القليل من الحق الذي يعيه الإنسان من الكلمة هو الذي كان ولا يزال يدفعه إلى التغيير نحو الأفضل. حتى إنه في كل مرة يقرأ الكلمة، يعي الكلمة بصورة أخرى أكثر حقاً وأكثر استنارة، فتبدو كلمة الله الأولى كأنها أقل حقاً وأقل استنارة!! فينسب الإنسان هذا التغيير إلى الكلمة و يبرىء نفسه، وهذا منتهى الإجحاف بكلمة الله.

ثبوت الكلمة وعدم تغيرها يظهر بصورة أوضح في تجسد «كلمة الله»: فالتجسد، وهو ظهور إلهي ومعتبر أيضاً واقعة تاريخية في صميم الزمان والمكان ــ وهذا انطباق على الكلمة المقروءة ــ لا يشرح تغيراً أو تطوراً في الله على وجه الإطلاق، ولكنه في الواقع يشرح إخلاءً واتضاعاً وتنازلاً. كلمة الله المكتوبة،

---

(30) Tract, in Joan. Ev. I, 1.

تشرح هذا التنازل العجيب وتحققه بالمرافقة المستمرة لضعفنا لتكميل تغيرنا حتى نقترب إلى الكامل أي الله.

نحن نتغير بالكلمة ونقترب بها وإليها، أما الكلمة فليس فيها «تغيير ولا ظل دوران.» (يع ١ : ١٧)

ولأن كلمة الله ترفع فكر الإنسان وقلبه دائماً من مستوى الإهتمامات الأرضية والحوادث الزمنية إلى المستوى الروحي غير الزمني حسب طبيعتها الروحية الفائقة، لذلك فإن دخول كلمة الله في عالم الإنسان والتحامها بصميم حياته، غيرت قيمة الحوادث الزمنية وجعلت لتاريخ الإنسان اتجاهاً روحياً، و بالأخص عند ظهور الله متجسداً في ملء الزمان، إذ أصبح تاريخ الإنسان مرتكزاً على هذا الحدث أو هذه المعجزة الكبرى يدور حولها و يتخذ منها امتداده بل و يتخذ منها معناه وأهميته. وكأنما التاريخ فقد نفسه كتاريخ للإنسان بميلاد المسيح، وصار تاريخاً للظهور الإلهي الذي هو في الحقيقة التحام كلمة الله بالإنسان جوهرياً.

وهذا أيضاً هو الواقع الذي نعيشه كل يوم، فكلمة الله تغيرنا وتؤثر على تفكيرنا وسلوكنا وحركتنا، وتطبع حوادثنا بالإنطباع الروحي، وتربط مستقبلنا كله برجاء الملكوت الآتى والقيامة والحياة الأبدية. وبهذا صارت الكلمة متحكمة في تاريخنا اليومي ومستقبلنا، جاذبة إليها كل حوادث الإنسان لتُفحص في نور الكلمة وحكمها، بحيث أن أية حادثة نحس أنها لا تخضع للحق كمشيئة الله المعلنة لنا بواسطة الكلمة، تفقد قيمتها ومعناها عندنا، وتبدو تافهة حقيرة وتسقط من اعتبارنا التاريخي.

و بذلك صار تاريخنا لا يقوم في حقيقته على شروق الشمس وغروبها، ولا على تكميل مطالب أجسادنا، ولا على الحوادث الأرضية، وإنما على مقدار قربنا أو بعدنا من كلمة الله. فاليوم يُدعى يوماً بمقدار ما نصنع فيه مشيئة الله ونعيش كلمته، ونحيا

في خضوعها وطاعتها، فيكون هذا «يوماً للرب» بالحقيقة و«سنة مقبولة.» (لو٤: ١٩)

أليس بهذا تكون كلمة الله صانعة لتاريخ الإنسان؟

فإذا أشرقت الكلمة على قلب الإنسان يصير نهارٌ، وإذا غربت يصير ليلٌ؟ ومن شروقها وغروبها يتكون اليوم الروحي!

والكلمة سواء في العهد القديم أو العهد الجديد لا تفسَّر على أساس حوادث زمنية مكانية محصورة، وإلا تنحصر الكلمة في ضيق أفق الإنسان وتشترك معه في ضعفه وعجزه.

كلمة الله للإنسان دائماً تفسيرها يقوم على أساس **رؤية الحاضر في كمال المستقبل**، فهي ذات طابع أُخروي «اسكاتولوجي» (٣١). ليس هذا معناه أنها لا تفعل في الحاضر، فهي ذات أهمية وعلاقة وتأثير مباشر في الحاضر الزمني، ولكن على أساس تغييره وتجديده وتحسينه ليناسب كمال ما هو آتٍ، لأن الكلمة مشدودة بإستمرار بالملكوت وتعمل له.

لذلك عندما تؤخذ كلمة الله و يُستند عليها لجعلها نظاماً ينفع وقته فقط دون أن يكون الأساس فيه لخدمة الروح والملكوت الآتي، فإن الكلمة تفقد ألوهتها وتصير كلمة إنسان لا كلمة الله، وتدخل هي نفسها تحت التغيير.

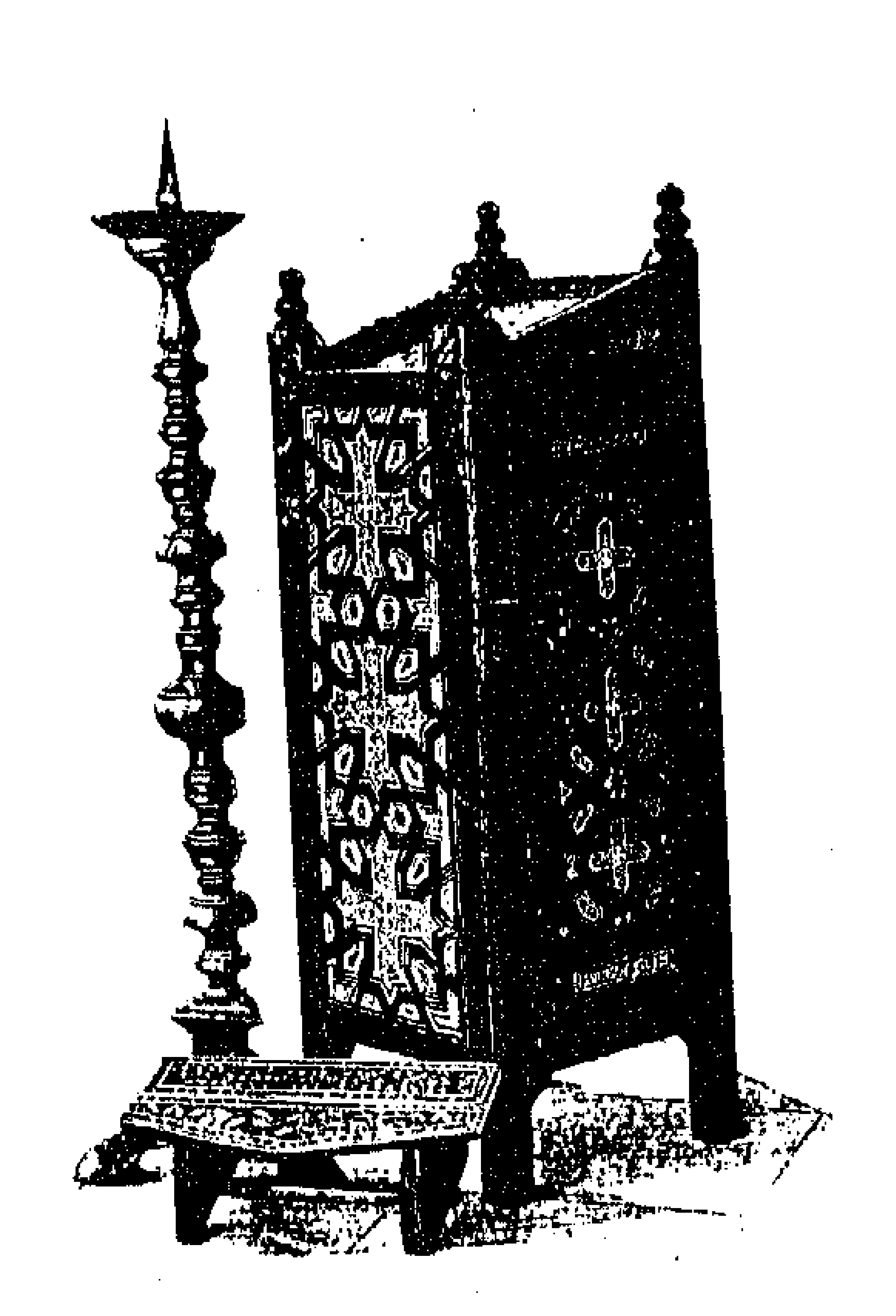
كذلك فإن الكلمة بصفتها روحاً وحياة، فهي ذات طابع روحي، ولكن ليس هذا معناه أنها تترفع على الجسد، بل على العكس، فإن هذا يؤهلها أن تؤثر فيه لتغييره باستمرار ليحيا حسب الروح، ولكن إذا تحايلنا على الكلمة لنحصرها لمنفعة

(٣١) اسكاتولوجي أو «اسخاتولوجي» كلمة يونانية أصلاً تستعمل للتعبير عن **الأمور الأخيرة** التي تحدث في نهاية العالم مثل مجيء المسيح الثاني وقيامة الأموات وحياة الدهر الآتي ...إلخ.

الجسد أو الجسديات عموماً لخدمة هذا الدهر، فإنها تفقد ألوهتها وتصير كلمة جسدية لا كلمة روحية، وتدخل هي نفسها تحت التغيير.

ومن هذا كله يتضح لنا أن **الكلمة غير متغيرة، وبذلك فهي قادرة أن تغير** كل شيء وترفعه من حالة العجز إلى حالة الكمال ومن الظلمة إلى النور ومن الموت إلى الحياة.

***



قيمة الكلمة

□□□

كلمة الله هي مشيئة معلَنة لنا لمعرفة قصد الله في كل ما يختص بحياة الإنسان.

هي **قوته** المرسَلة إلى العالم كطاقة روحية خلاَّقة لتجدد حياة الإنسان وتجذبه باستمرار ليبلغ إلى النصيب المقدس والصالح الذي أعده الله له برحمته.

هي حياة منبعثة من الله تتفاعل بذهن الإنسان و بروحه فتتحد به، و يصير الإنسان بواسطتها **حياً بالله وفي الله**. فالكلمة مصدر الحياة الروحية للإنسان وواسطة **إتحاد سري** بالله. هي **حكمة** الله المنطوقة والمعلَنة للإنسان، إذا اقتبلها العقل يدرك تدبير الله، وتنكشف له أسرار الوجود، وترتبط العلل بمعلولاتها، وتظهر غاية أعمال الله، فيتأسس الإيمان وتمتد أصوله، و يدخل الإنسان بمشيئته في مجال عمل الله و يصير وحدة حية في خطة الخلاص العامة.

هي **نور** الله المرسَل إلى العالم المظلم بمعرفة الخطية والشر. فكلمة الله عندما تدخل القلب تصير مثل شعاع يشرق في الظلمة فيختفي عالم و ينكشف عالم، يختفي عالم الإثم وخبراته الشريرة، و ينكشف عالم الروح وخبرات القداسة، فتصير الكلمة في طول حياة الإنسان صلة منيرة وقائدة إلى عالم الروح، وتربط قلب الإنسان بالخلود والخالدين، وتظل **تقود الروح** إلى وطنها الأصيل. والكلمة تنير الإنسان نفسه فتؤهله لرؤية النور أكثر: «بنورك يارب نعاين النور.» (مز٣٦: ٩)

كلمة الله يُطلَق عليها بالعبرية «التوراه» (مت١٢: ٥) وهي ما نسميها

بالناموس، ومعنى التوراه الحرفي هو «التعليم» أي التعليم الذي استلمه موسى على جبل سيناء.

كان توقير اليهود «للتوراه» بصفتها كلمة الله شيئاً فائقاً للوصف، ولكن ليس بصفتها الروحية أي ليس لما تحتويه من تعليم يؤدي إلى الحياة، وإنما بصفتها الحرفية كشيء من عند الله أي بسبب كونها كلمة الله وحسب.

فاليهودي التقي كان يعتبر التوراه كلمة الله المستحقة منتهى العبادة والخضوع والإكرام، مع توقير نفس الكلمات توقيراً جنونياً يفوق حدود العقل.

والملهَم منهم كداود النبي مثلاً، استطاع أن ينفذ قليلاً من القيمة الحرفية إلى القيمة المعنوية للكلمة، فصار توقيرها مشمولاً بالتسبيح والتهليل والرقص بمزمار وقيثار ودفوف وصفوف، وكلها تشرح مدى انفعال النفس وتأثرها، و يكفي قراءة مزمور ١١٨ (في النسخة السبعينية و١١٩ في الأصل العبري) لندرك قيمة كلمة الله كعبادة في حد ذاتها عند المرنم القديم، وكيف صارت مركز تفكيره واهتمامه وحبه ولَهَجِه الليل والنهار.

ومن التقاليد القديمة الموروثة عن تعاليم الربيين، أوصاف للتوراه أي كلمة الله، مذهلة في الواقع، وهي تبين لنا بصورة جلية مركز كلمة الله في حياة اليهودي وتفكيره واهتمامه، ولكن الذي يثير دهشتنا أكثر أن هذه الأوصاف شبيهة إلى حد كبير بالأوصاف التي للمسيح.

ـــ فالتوراه في عُرف الربيين موجودة قبل الوجود: [سبعة أشياء خُلقت قبل خلقة العالم: **التوراه**، والتوبة، وجنة عدن، وجهنم، وعرش المجد، والهيكل، وآسم المسيا.]

ـــ إن مركز التوراه هو في حضن الله: [عندما يكون الله جالساً على عرش مجده

تكون التوراه في حضن الله.]
ــ إن التوراه هي بنت الله: [التوراة هي ٱبنتي.]
ــ إن التوراه خَلَقَت كل شيء: [بواسطة البكر خلق الله السماء الأرض، والبكر ليس شيئاً آخر سوى التوراه.]
ــ التوراه حياة العالم: [كلمات التوراه هي حياة العالم.]
ــ كما أنه مكتوب في سفر عزدراس الثاني (سفر نحميا حسب الطبعة الماسورية) أصحاح ١٤: ٢١: [العالم صار في الظلمة وأصبح الذين يسكنون فيه **بلا نور لأن توراتك محروقة**، لذلك لا يعرف أحد الأعمال التي صنعتها ولا الأعمال التي ستعملها.]
ــ وفي «المدراش» في التعليق على سفر المزامير: [الحق هو التوراه.]

كل هذا التوقير والإكرام والعبادة المتناهية التي قدمها اليهود للتوراه في معناها الحرفي دون أن يكتشفوا سر فاعليتها في حياتهم، يجعلنا في خزي عظيم وتوبيخ لا مثيل له، إذ وقد انكشفت لنا التوراه في معناها الروحي بواسطة الإنجيل، واستُعلنت حقيقتها المهيبة في تجسد ٱبن الله، واتضحت لنا قدرتها الإلهية على خلق الإنسان خلقاً جديداً ومَنْحِه روح القيامة والتجديد والفداء والغفران والتقديس، إلا أنه بالرغم من ذلك فسلطان الكلمة وهيبتها وإكرامها لم يبلغ في قلوبنا ما بلغه اليهود من إكرام مجرد حروفها!

و يوحنا الرسول يشير إشارة خفية إلى المجد الذي صارت إليه الكلمة بتجسد المسيح وقدرتها الجديدة لمنح النعمة والحق «لأن الناموس بموسى أُعطي **أما النعمة والحق** فبيسوع المسيح صارا» (يو١: ١٧). وكأن يوحنا الرسول يقول لنا: إن كانت حروف التوراه استحقت هذه العبادة وهذا التمجيد الفائق من قِبَل اليهود، فكم تستحق كلمة الله وهي محمَّلة بقوة حياة جديدة ومواهب بضمان المسيح نفسه؟

وبولس الرسول أيضاً يضعنا في موقف حرج عندما يقارن موقفنا إزاء الكلمة بموقف اليهود إزاء التوراه: «لذلك يجب أن نتنبَّه أكثر إلى ما سمعنا لئلا نفوته، لأنه إن كانت الكلمة التي تكلم بها ملائكة (التوراه) قد صارت ثابتة وكل تعدٍّ ومعصيةٍ نال مجازاة عادلة فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلم به.»(٣٢)

إن قوة الكنيسة الأولى كانت نابعة من تقبلهم لكلمات المسيح المتداولة شفاهاً بإيمان عظيم كما هي، ومن اعتبارهم إياها حياة حقيقية يعيشونها بثقة وبساطة قلب. فمثلاً — قبولهم للعماد لم يكن قط على مستوى الفهم اللاهوتي، أو بعد دراسة لمعناه وطريقته وآثاره وتاريخه وفلسفته، ولكن كان مجرد طاعة لأمر الله مع إيمان أن في هذه الطاعة حتماً يتم كل وعد الله. كذلك أيضاً سر الإفخارستيا، كانوا يمارسونه كوصية محبوبة لدى الرب، تجمعهم في ألفة وأخوة ومحبة، لكسر الخبز وممارسة السر بابتهاج، فكان يتم عمله على أساس الثقة في كلمة الرب ويقين تحقيق وعده.

ببساطة المسيح وبساطة تعاليمه ظلت منطبعة على الكنيسة الأولى، وكانت مصدر قوة لا يستهان بها.

كلمة المسيح كان يتداولها القوم كعقار طبي يشفي ويقيم من الموت بثقة وأمانة ويقين، فكانت تشفي فعلاً وتقيم من الموت. التلاميذ أنفسهم كان سر قوتهم الوحيد الذي يحملونه في قلوبهم أينما ساروا هو كلمة الرب واسمه، وكانوا يباشرون سلطانهم بصفتهم «معاينين وخدَّاماً للكلمة.»(٣٣)

---

(٣٢) عب ٢: ١ — ٣.

(٣٣) لو ١: ٢.

الإنجيل كان يفهمه بولس الرسول و يعيشه ككلمة الله الحية الحاملة لقوة الله في ذاتها للمصالحة والخلاص وكشف الحق ومنح النعمة والحياة:

«واضعاً فينا **كلمة المصالحة**» (٣٤)

«إليكم أُرسلت **كلمة الخلاص**» (٣٥)

«سمعتم **كلمة الحق** إنجيل خلاصكم» (٣٦)

«متمسكين **بكلمة الحياة**» (٣٧)

«أستودعكم يا إخوتي لله **ولكلمة نعمته القادرة أن تبنيكم** وتعطيكم ميراثاً مع جميع المقدّسين.» (٣٨)

والكنيسة بوجه عام كانت تعتبر نفسها **شاهدة لقوة كلمة الله** وفعاليتها حسب كل وعد الله. بل وكان التلاميذ يحسبون أنفسهم ضامنين للحق الذي في الكلمة وشهوداً لسلطانها الإلهي بصفتهم معاينين لمجد المسيح وشهادة الآب له من المجد الأسنى، وشهوداً لقيامته من الأموات.

كل هذا آل إلينا بكامله وفي ملء قوته حياً بروح الكنيسة كتراث وتقليد، ولكن للأسف انشغل القوم بالجدل الديني واللاهوتي عن سر القوة والحياة والفعالية الموجودة في كلمة الإنجيل محاولين أن يقتحموا مجال النعمة والخلاص بعقولهم تاركين الباب الحقيقي المؤدي إلى الحياة.

***

(٣٤) ٢ كو ٥ : ١٩.

(٣٥) أع ١٣ : ٢٦.

(٣٦) أف ١ : ١٣.

(٣٧) في ٢ : ١٦.

(٣٨) أع ٢٠ : ٣٢.

قوة الكلمة

□□□

كلمة الله ليست ككلمة الناس، لأن **بمجرد أن ينطقها الله تصير ذات مفعول** وتأخذ كيانها في الوجود إلى مالانهاية: «السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول.»(٣٩)

وكما أن الله خلق كل شيء في العالم بكلمته لما نطقها: «بالإيمان نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يُرى مما هو ظاهر»(٤٠). وكل ما في الوجود لا يزال متقناً و يستمد قانون نظامه المتقن ومساره من قوة الكلمة بخضوعه المطلق لسلطانها الذي لا يزول... كذلك فكلمة الله أرسلها إلى قلب الإنسان منذ القديم منطوقة روحياً، ومسموعة ومدرَكة عقلياً، ليبعث فيه هذا الإتقان عينه إنما على مستوى الروح، فيستمد الإنسان من قوة الكلمة نظام تفكيره وشعوره وسلوكه حسب رأي الله وتدبيره وذلك حينما يخضع لسلطان الكلمة خضوعاً كاملاً، كما تخضع الخليقة الأخرى لناموس وجودها وتحركها.

هذا الناموس الروحي الذي نطقه الله مرة على جبل سيناء وكشفه وأكمله وأوضحه الرب نفسه بتجسده وحياته وموته وقيامته، لا يزال يسري مفعوله في الخليقة البشرية كلها بسلطان الكلمة المنطوقة التي منذ أن نطقها الله لم تكفّ عن فعلها الخلاق المستمر.

---

(٣٩) مت ٢٤ : ٣٥ .

(٤٠) عب ١١ : ٣ .

كلمة الله إذن ذات مفعول حتمي. ومنذ أن صارت في العالم، والعالم كله مُخضَع لها، محفوظ بقوتها تحت سلطانها «السموات كانت منذ القديم والأرض بكلمة الله قائمة... وأما السموات والأرض الكائنة الآن فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها.» (٤١)

وأما بالنسبة لكلمة الله المرسلة للإنسان خاصة، فسلطانها الروحي الخلّاق والمنعِم لا يسري إلا على الذين أخضعوا قلوبهم وعقولهم وآمالهم ومشيئتهم لتدبير الله الفائق لقبول حياة جديدة وشركة في عالم الروح. فكلمة الله الروحية المنطوقة للإنسان خاصة لا تدخل القلب عنوة ولا تتسلط على مشيئات الناس، بل على العكس تحتاج لمن يغصب نفسه لها.

وكل من خضع لقوة سلطانها يدخل في تدبير إتقانها، ولا تزال تعمل عملها فيه بهوادة وتؤدة وإنما بيقين إلى أن يبلغ إلى منتهى قصد الله: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إليَّ فارغة بل تعمل ما سُررتُ به وتنجح فيما أرسلتها له.» (٤٢)

كلمة الله كما خلقت الحياة على الأرض من العدم أي الموت، كذلك إذا استقرت في قلب الإنسان وارتاحت فيه فإنها تحييه أي تقيمه من الموت وتُدخله دائرة الحياة الأبدية أي عدم الموت: «من يسمع كلامي و يؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (٤٣)

ولكن المسيح لا يزال يؤكد أنه حتى ولو مات الإنسان وصار رِمَّة وأنتن أو

---

(٤١) ٢ بط ٣ : ٥ و ٧.
(٤٢) إش ٥٥ : ١١.
(٤٣) يو ٥ : ٢٤.

انمحت أعضاؤه، فإنه إذا ما استقر عليه صوت ابن الله فإنه حالاً يقوم من الموت ويحيا «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (٤٤)

كلمة الله **قوة محيية** بصورة عملية **جسدية** كما رأيناها في لعازر، و بصورة **روحية** سرية كما رأيناها في جميع التلاميذ والرسل و بالأخص في شاول وفي جميع الذين تغيرت حياتهم مثله على مدى العصور، فعاشوا حياة البر والقداسة والتقوى شهادة للروح والحياة الجديدة التي صارت فيهم.

قوة الحياة الكائنة في كلمة الله لم تضعف، هي هي، حتى هذه اللحظة لا تزال تساوي خلق العالم كله من العدم مرة أخرى بل مرات، ولا تزال تساوي قيامة لعازر من الموت، وهي هي القوة المذخرة التي ستقيم البشرية كلها في اليوم الأخير.

هذه القوة المحيية لا تزال تباشر عملها حتى الآن بكلمة المسيح وطوبى لمن يسمع لها ويخضع لسلطانها ليتقبل فعلها ببساطة الإيمان و يقين الفهم: «تأتي ساعة **وهي الآن** حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (٤٥)، حيث الموت الآن هو الموت الروحي الذي يتم سراً بالإنفصال عن الله، أما السمع هنا فليس هو سمع الأذن العادي، ولكن سمع القلب أي الخضوع الداخلي: «لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم **لا تقدرون أن تسمعوا قولي.**» (٤٦)

وصوت ابن الله هو فاعلية الحياة التي في الكلمة.

والسامعون يحيون أي يدخلون سراً في مجال الحياة الأبدية.

---

(٤٤) يو ٥ : ٢٨ و ٢٩ .

(٤٥) يو ٥ : ٢٥ .

(٤٦) يو ٨ : ٤٣ .

حياتنا الجسدية مخضعة لسلطان كلمة الله شئنا أو أبينا، كما يخضع لها كل الوجود. فليس الطعام وحده هو الذي يقيم حياتنا الجسدية: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (٤٧). فقانون الكلمة الحتمي الذي يضبط الخليقة كلها يسري على أجسادنا إلزاماً، فيعيش الإنسان ويموت تبعاً لتدبير القوانين التي تسري فيه وعليه، ولكن إذا آمن الإنسان بكلمة الله الروحية وتقبّلها في قلبه ينتقل الإنسان (بالقيامة) من حتمية القوانين الطبيعية ولا يصير بعد تحت اضطرارها سواء في داخل الجسد أو خارجه كما رأينا في قيامة المسيح.

نحن نتقبّل من الآن شيئاً من هذه الحرية بواسطة الكلمة، إذ يشعر أولاد الله أنهم أصبحوا وهم ليسوا تحت اضطرار الجسد وإلحاحات غرائزه وحتمية مطالب الطبيعة وميولها. الإنسان يستمد من قوة كلمة الله ومن استسلامه لسلطانها قدرة جديدة يتحرر بها من عوامل الشد والجذب في داخله وخارجه، كما يتحرر من ميول كثيرة طبيعية غير نقية: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو١٥: ٣)، أي أن الكلمة إذا استقرت في قلب أمين باشرت عملها ككلمة قداسة لحساب الحياة الأبدية.



(٤٧) مت ٤: ٤.

سلطان الكلمة

□□□

«أجابهم يسوع أليس مكتوباً في ناموسكم **أنا قلت إنكم** آلهة، إن قال آلهة لأولئك الذين **صارت إليهم كلمة الله** ولا يمكن أن يُنقض المكتوب ...»[48]

في هذا الحديث اعتبار خطير لسلطان كلمة الله، يشير إليه المسيح و يثبته و يؤكده بصورة قاطعة.

وأصل هذه الآية أن الله قديماً قال لداود النبي بالروح في المزمور ٨٢: ٦: «**أنا قلت** إنكم آلهة و بنو العلي كلكم». فصارت كلمة الله هذه وثيقة أعطت الإنسان حقاً مسبقاً أن يكون شريك الطبيعة الإلهية (٢بط ١: ٤). والسيد المسيح يُؤمِّن على هذه الحقيقة و يتمسك بها عنا، باعتبار أن كلمة الله ذات **سلطان لا يُنقض**، وطالما خرجت من فم الله فقد صارت حقاً ثابتاً في يد الإنسان.

وفي الحقيقة تُعتبر هذه الكلمة «أنا **قلت** إنكم **آلهة**» أعظم جميع الهبات التي يمكن أن ينالها الإنسان، فلو تأملنا كيف أن الله وهبها بمجرد نطق «**أنا قلت**»، استطعنا أن ندرك سلطان الكلمة الذي لا نهاية لحدوده في العطاء.

كذلك لو رجعنا للقديس يوحنا الرسول في بداية إنجيله نسمعه يقول: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم **سلطاناً أن يصيروا** أولاد الله ...» (يو١: ١٢). ولو دققنا في

---

(٤٨) يو ١٠: ٣٤ و٣٥.

تتبع كلام الإنجيل لنعرف من هم هؤلاء الذين أعطاهم هذا السلطان، نجد أن هذا يظهر من تكميل تتابع الحوادث بالنسبة للمسيح الكلمة الذي **كان عند الله**، ثم **كان في العالم**، والعالم لم يعرفه. ثم **إلى خاصته جاء** وخاصته لم تقبله، ثم **صار جسداً** وحل بيننا. أي أن مجيئه إلى خاصته كان قبل التجسد، و يعني به الرسول الناموس والأنبياء والحق الذي في كلمة الله. فكل الذين قبلوا كلمة الله قديماً وأطاعوها اعتبرهم الوحي أنهم قبلوا المسيح وأطاعوه، فاستحقوا بواسطة قبولهم لكلمة الله قديماً ما نستحقه نحن الآن بقبولنا كلمة الله في المسيح. وهؤلاء أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله! هذا التبني المسبق أو المبكر قام بواسطة كلمة الله أي بمجرد نطق الكلمة: «**أنا قلت إنكم ... بنو العلي كلكم...** »

هكذا تبدو كلمة الله ذات سلطان فائق فعّال يتخطى الزمن والحدود والسدود، يهب **الألوهة** ويهب **البنوة** بمجرد نطق الله! **إنه سر رهيب هذا الكائن في الكلمة**. لا فرق فيها بين ما هو قديم وجديد. فقبول الكلمة قديماً اعتبره الله قبولاً للمسيح، وهكذا تساوى الذي آمن على الرجاء بالذي آمن برؤ يا العين ولمس اليد!

الكلمة استطاعت أن تسد العجز البشري، وتلغي القصور الزمني، وتعوض عن الرؤ يا بالتصديق، وعن العيان بالإيمان.

سلطان الكلمة لا يزال مفتوحاً أمام ضعفنا لحسن حظنا، ولا يزال يباشر عمله ليعطي لكل من يقبله كل ما نطق به الله قديماً وجديداً كمسرته حسب كل وعده!

[كل ما كُتب بالإلهام الإلهي له **سلطة الديانة**](٤٩)

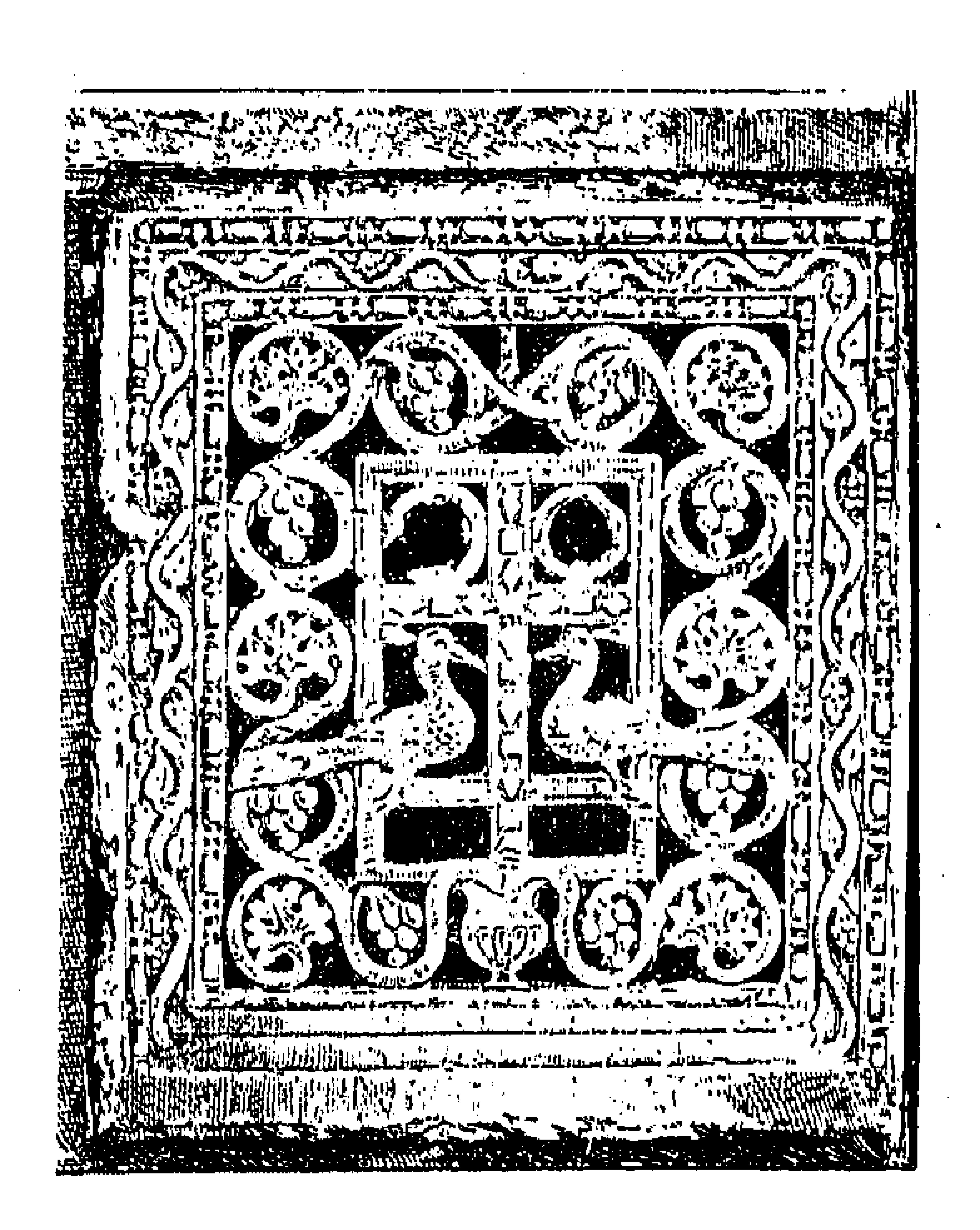
[كلمة الله هي **قاعدة الحق وقانونه**](٥٠)

(49) De Civit. Dei XVIII, 38.
(50) Sermo 30,2.

[كل ما كُتب في الأسفار المقدسة نلتزم بالإيمان به **التزاماً مطلقاً**] (٥١)

[إذا وعينا جيداً **سلطان الأسفار** المقدسة استوعبنا الإيمان نفسه] (٥٢)

القديس أغسطينوس



(51) De Civit. Dei XXI, 6, 1.
(52) De Doctrina Christ. I, 41.

المسيح ككلمة وناطق بالكلمة

□□□

كلمة الله سواء التي نطقها الأنبياء قديماً في الأسفار المقدسة أو التي نطقها المسيح في العهد الجديد، لها علاقة سرية عميقة بالمسيح نفسه لا يمكن إدراكها ولا يمكن النظر إلى أعماقها، والعقل يرهب الإقتراب إليها و يكتفي بالرؤيا السطحية، فكلاهما «كلمة الله» ولكن عسير أن يتجاوز العقل حدود هذا التعبير. فالصلة بينهما في غاية القوة ولكن الفرق جوهري!

القديس يوحنا الرسول بدأ بالرؤيا الجريئة ونظرها في عمقها اللانهائي، وتعرَّف على المسيح «الكلمة» منذ البدء قائماً عند الله، متأكداً أنه هو الله خالق العالم والموجود فيه، والآتي في القديم، والمتجسد في ملء الزمان، والحالُّ في وسطنا، ثم كفَّ يوحنا عن تعقُّب «الكلمة»، وقدمه متكلماً، لنتحقق بأنفسنا أنه هو الذي في البدء كان «**الكلمة**»، ومن البدء «**يتكلم**» أيضاً!

ـــ «فقالوا له **من أنت**؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء **ما أكلمكم** أيضاً به.» (٥٣)

المسيح لم ينطق فقط بكلمة الله، أي بالحق «الحق الحق أقول لكم ...»، بل أيضاً قدَّم نفسه أنه هو الكلمة أي الحق نفسه: «أنا هو الحق.» (يو١٤: ٦)

(٥٣) يو٨: ٢٥.

كذلك لم يعطِ الحياة فقط لمن أقامهم من الموت فعلاً، بل قدم نفسه أنه هو الحياة: «أنا هو الحياة.» (يو١١: ٢٥)

كذلك لم يعطِ الخبز فقط للناس بصورة إعجازية، بل قدم نفسه أنه هو خبز الحياة: «أنا هو الخبز الحي.» (يو٦: ٥١)

وكذلك لو تتبعنا كلامه لوجدنا أن **كل ما في المسيح هو أيضاً في كلامه!**
فالمسيح روح وحياة وحق ونور وخبز حي، وكلامه أيضاً كذلك!

ولكن هل نستطيع أن نتعمق أكثر، إزاء هذه المماثلة بين المسيح وكلامه؟
الأمر عسير وفوق قدرة العقل.
ولكن كل ما نخرج به لحياتنا هو أن المسيح يشرح الكلمة بحياته، والكلمة توصلنا إلى حياة المسيح!
وحينما نلتصق بالمسيح بالإيمان ومحبة القلب ندخل تلقائياً في عمق كلمته!
وحينما نتعمق كلامه في إخلاص وحب وإيمان نجد أنفسنا أمام المسيح وجهاً لوجه.

المسيح يشهد لكلمة الله بإخلاص وحماس فائق، وكلمة الله تشهد له بيقين وتعلنه وتمجده: «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي» (يو١٥: ١٠)، «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني ... وأظهر له ذاتي.» (يو١٤: ٢١)

كلمة الله المنطوقة بفم الأنبياء والملهَمين كانت ولا زالت منطق الإعلان عن الله وعما يريده الله، فهي وسيلة التقارب المثلى من بين كل الوسائل الأخرى سواء كانت المناظر أو الرؤى أو الأحلام.

وكلمة الله اختزلت المسافة الحتمية الشاسعة جداً بين طبيعة الله الخالق المتعالي

غير المحدود وطبيعة الإنسان المخلوق والمحدود.

الله، بمسرته الخاصة و باختياره، هو الذي اقترب من الإنسان بالكلمة كوسيلة يفهمها الإنسان و يستجيب لها بإمكانياته الطبيعية دون أن يقتحم شخصية الإنسان أو يضطرها للإستجابة عن انغلاب أو خوف أو تأثر كالمعجزة مثلاً.

في الكلمة المنطوقة تلاقى الحق المطلق المتعالي غير المحدود بالواقع الإنساني على مستوى الفهم والإدراك والإحساس القلبي البسيط، إنما بواسطة نبي أو ملهم يستقبلها.

بتجسد المسيح آبن الله، التحم هذا الحق المطلق المتعالي غير المحدود بالواقع الإنساني التحاماً كاملاً على مستوى الجسد المحسوس والمنظور، فصارت كلمة الله في المسيح ناطقة لذاتها أو ناطقة بذاتها، لذلك فالمسيح يُدعى «**الكلمة الذاتى**»(٥٤)، وكلمته هو تُدعى «روح وحياة»! (يو٦: ٦٣)

كلمة الله في المسيح لم تعد تحتاج إلى وسيط ليعلنها، أو نبي ليوصلها «ولا يُعلّمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم.»(٥٥)

المسيح لم يختزل المسافة الحتمية بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان فقط، ولكنه ألغاها أيضاً.

كلمة الله في المسيح و بواسطة المسيح صارت للجميع وكأنما الجميع صاروا أنبياء، لأن الذي يقبل المسيح في ذهنه وفي قلبه يقبل كلمة الله منه مباشرة.

---

(٥٤) قسمة الميلاد ــ الخولاجي المقدس.

(٥٥) إر٣١ : ٣٤.

ما أكمله المسيح «الكلمة الذاتى» بالتجسد والموت والقيامة، أضاف إلى مجال عمل كلمة الله، المقدرة على تكميل فعل الفداء لإبطال أثر الخطية الروحي من الطبيعة البشرية، ولإقامتها من الموت ومصالحتها مع الله. فالإيمان بالمسيح أضاف إلى الكلمة مفاعيل جديدة قادرة جبارة، فبالمسيح:

«كلمة **الصليب**» صارت قوة الله للخلاص.

و«كلمة **المصالحة**» صارت قادرة أن تعيد أخطى الخطاة إلى حضن الله.

و«كلمة **الحياة**» تقيم من موت.

و«كلمة **الحق**» إنجيل خلاصكم.

و«كلمة **نعمته**» قادرة أن تبنيكم وتعطيكم ميراثاً مع جميع المقدسين.

نحن لم نعد نواجه الإنجيل على أساس أنه كلمات مفهومة عن موضوع هام، ولكن على أساس أنه **كلمة حية بالمسيح وفعالة**، ينفذ الله بواسطتها إلى أعماقنا **كحدث إلهي مقتدر**، كسيف ذي حدين لا يعوقه شيء عن تكميل عمله حسب مسرة الله وكثرة رحمته على بني آدم.

لذلك لا يمكن امتلاك الكلمة كفكرة أو موضوع، لا بد أن تنفذ الكلمة داخلنا وتفحصنا وتخترق حتى مفارق النفس والروح، وتكشف وتميز وتدين أفكار القلب ونياته! (عب ٤: ١٢).

الكلمة ليست ميتة أو من صنع إنسان حتى نتقابل معها كما نتقابل مع صورة أو تمثال. الكلمة حية فعالة لها مع طبيعتنا صدام وعراك، نحن نتواجه معها كما تواجه يعقوب مع الرب كنوع من الصراع في الظلام في لحظة من لحظات الأبدية ولا نتركها حتى تباركنا، ولكن لا بد أن تصيب حُقّ فخذنا فلا نعود نسير كباقي الناس، فالكلمة تكسر وتعصب.

الإنسان يتوه عن حقيقة الكلمة وعن فعاليتها إذا ظن أنه يمتلكها حينما يحفظها. نحن لا نمتلك الكلمة إلا إذا أصابتنا في أعماقنا مخترقة كل أغلفة حياتنا الكاذبة إلى أن تمس القلب ذاته فتمزقه، فنموت لها، وحينئذ تحيينا وتعطينا قوتها، تماماً كما أننا لا نستطيع أن نملك المسيح إلا إذا متنا أولاً معه: «أنا أُميت وأُحيي.»(٥٦)

إذا أصابتنا الكلمة وكسرتنا وكشفت عوارنا، حينئذ تعطينا سرها فنتسلح بها، والذي يتسلح بالكلمة بعد أن يذوق طعناتها هو وحده الذي يستطيع أن يخدم بها.

بعد أن ارتبطت الكلمة بالمسيح، لم يعد مستطاعاً أن نقتطعها من الإنجيل لكي نتقابل بها مع أنفسنا بدون المسيح. العكس صحيح، يلزمنا أن نقتطع أنفسنا أولاً من العالم لكي نتقابل مع الكلمة في الإنجيل أي في المسيح.

خارجاً عن الله لا يمكن أن ندخل إلى الكلمة ولا أن تدخل الكلمة إلينا.



---

(٥٦) تث ٣٢ : ٣٩.

أسلوب الكلمة عند المسيح

□□□

كلمة المسيح غنية بمحتوياتها، فإذا انفتح القلب لها تحمله إلى أعماقها بأجنحة خفية وتجذبه جذباً لذيذاً لا يستطيع أن يدرك مصدره. والإنتباه الذهني إذا تركز في كلمة المسيح باحثاً وراء الحق، متذرعاً بيسير من الصبر وطول الأناة فهو حتماً واجده، فيخرج وفي حضنه أغمار من أسرار الحياة.

والإنسان لا يعوزه كثير من الفحص ليدرك الصلة العجيبة بين كلمات المسيح التي كان يعلم بها وبين حقيقة نفسه، وكأنما الكلمات التي كان ينطقها كان يشرح بها نفسه ويعلن بها سر حياته. **فالكلمة غايتها دائماً إعلان الله.**

أسلوب المسيح في التعبير عن الحقيقة بسيط غاية البساطة، حي ينبض بالحياة، وكأن الكلام له روح يحتضن الفكر بخفّة. والقصة عند المسيح بدون مقدمات، تثير الإنتباه من أول كلمة، وتأخذ بمجامع القلب وتترك الإنسان في تأمل عميق، إذ يكتشف الإنسان موقفه فيها بسهولة.

عند الضرورة يرتفع أسلوب المسيح بالكلمة إلى أعنف مستوى من التوبيخ حيث يصب الملامة ويكدسها فوق رؤوس المرائين، دون أن يخرج عن حدود رزانة الحق قيد شعرة.

كما أن له قدرة أن ينزل بالكلمة إلى مستوى البؤساء والأذلاء والمجروحين،

فيبادلهم مشاعر لطيفة برحمة مقتدرة واتضاع غير مصطنع.

له أسلوب لا يُجارَى في مواجهة التحدي بكلمة حاسمة، وغالباً ما تكون من الأسفار، والرد على سؤال بسؤال.

كل حديثه مختصر، وكل كلمة تصيب هدفها بسهولة وإحكام، ولا شيء يخرج عن الواقع، وكلمة واحدة لا يمكن اختصارها.

لا ينمق الكلام، ولا يدّعي العلم، ولا يستحدث الأقوال، بل يستخدم الأمثال الجارية لدى الأنبياء والربيين، والألفاظ المألوفة السهلة لدى الناس، ولكن بضبط وذوق حساس، و يقودها حتى يبلغ بها أعلى مستوى من الحق والتعليم.

إذا حكم في شيء ينفذ إلى نهايته حيث لا يكون حكم آخر.

الكلمة تخرج من فم المسيح مُحكَمة تبرهن نفسها، وعند فحصها لا يمكن أن تكون غير ما هي. وهذا كله يحقق أن المسيح كان يتكلم من الله أو بالحري هو كلمة الله.

ليس في حديث المسيح محاولة للتأثير على الناس، فالأسلوب يساوي الموضوع ولا يزيد، حتى لا يتوه السامع في الأسلوب عن المعنى.

كلماته شفافة تعبّر عن فكره، لأنه لم يستقيها من مصدر غير قلبه.

بساطته لم تنزل قط إلى مستوى التفاهة، لأنه لم ينشغل قط بأقل من ملكوت الله.

كلامه يخاطب إرادة الإنسان أكثر مما يخاطب ذكاءه.

وكلمته كَشْفٌ أكثر منها تعليماً.

لا يكتفي المسيح بأن يقنع الإنسان فقط وإنما يحاول دائماً أن يكسب طاعته، لذلك فالكلمة عنده على مستوى العمل دون اعتبار للقيم النظرية.

ليس لحديثه خطة، فكلمته تخرج للمناسبة أو لسؤال عارض أو بدافع حوادث اليوم الكثيرة أو لإعتراضات القوم أو مصادمات الفريسيين.

في كل تعاليمه لم يضع تعاريف نظرية ليثبِّت بها الحقائق في أذهان الناس، بل ترك الحقيقة تُعبِّر عن نفسها بالواقع والممارسة.

كذلك ليس في تعاليم المسيح خيوط متصلة لنظرية عامة أو أسلوب معين ينطبق على كل أقواله، لذلك يستحيل إخضاع تعاليم المسيح وأقواله تحت منهج فكري محدد.

كما أنه ليس في تعاليم المسيح وحدة منطقية أو فلسفية، ولكن وحدة الإلهام والرؤيا تنطبق على كل فكرة وكل كلمة، والحق يشد أزر الإنجيل كله.

□

المجد والشكر والتسبيح للمسيح الذي جعل الكلمة روحاً وحياة و برهاناً لقوة الله واقتداره، لفداء الإنسان وخلاصه.

المسيح كشاهدٍ ومُعطٍ للكلمة

□□□

المسيح ركّز في تعاليمه وفي طريقة حياته مبدأ **الطاعة العملية** الدقيقة لسلطان الله الممثَّل في كلمته. وحتَّم به كجوهر للعبادة وأصل وروح الديانة ومحور الإنجيل وكل تعليم: «الذي من الله يسمع كلام الله.» (يو٨: ٤٧)

كما ركز المسيح بصورة مماثلة على **أمانة** مواعيد الله **وصدق** كلمته وعدم نقض المكتوب، مؤكداً لنا أنه أهون علينا أن نتصور زوال السماء والأرض من أن نتصور زوال كلمة من كلام الله. وهو في سبيل ذلك يوجه نظرنا إلى:

ــ **تقديس** كلمة الله وإعطائها الخضوع والطاعة الكاملة حتى ولو كانت صادرة من الذين لا يطيعونها بحياتهم وأعمالهم.(٥٧)

ــ **احترام أصغر الوصايا** مهما تقدمنا في الوصايا الأكبر، لأن تنفيذنا للوصايا الكبرى لا يعفينا من الإلتزام بالوصايا الصغرى: «كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك.» (٥٨)

ــ **توقير** كلمة العهد القديم وعدم الإقتراب إلى سير الآباء الأُوَل بروح النقد حتى ولو كانت القصص المذكورة فيها تخالف في ظاهرها ميزان الحقيقة التي بلغناها الآن، أو حتى لو كان فيها خروج على الإلتزامات المفروضة قديماً، لأن الآباء القديسين بلغوا حداً من الحرية في علاقتهم مع الله يفوق الناموس و يفوق مستوانا

---

(٥٧) مت ٢٣ : ٣ .

(٥٨) مت ٢٣ : ٢٣ .

الحاضر. «أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه، كيف دخل بيت الله في أيام أبياثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحلُّ أكلُه إلا للكهنة وأعطى الذين كانوا معه أيضاً» (٥٩). وواضح أن الرب لا ينتقد داود بل بالعكس يأخذ عمل داود **قياساً لحرية القديسين** و يطبقه على **تلاميذه** الذين أكلوا السنابل يوم السبت.

ــ إعطاء كلمة الله **الطاعة المطلقة** فوق أي اعتبار بشري وعدم الجمع بين كلمة الله وما يخالفها. (٦٠)

ــ إعتبار ما كتبه الأنبياء قديماً أنه من **نُطق الروح** القدس فيهم: «داود... قال بالروح ...» (٦١)، وهذا ما نردده في قانون الإيمان: [نؤمن بالروح القدس ... الناطق في الأنبياء.]

المسيح لم يكن يرجع لإقتباسات العهد القديم لمجرد إقناع سامعيه، أو زيادة وزن القيمة الروحية لتعاليمه، أو لدفع عجز أو إظهار دراية، ولكن **ليكرِّم كلمة الله** التي بين أيديهم وكإشارة إلى مصدر السلطان الذي به يخدم و يعلم.

فالمسيح كان يحب الكلمة و يثق في سلطانها و يعتمد عليها كحجة قاطعة مانعة كما رأيناه في صراعه مع الشيطان، كما أنه كان ينتهز كل فرصة ليدافع عن نقاوتها وأصالتها ضد الزيادات والتخريجات والتقليدات التي أضفاها عليها الفريسيون والناموسيون والكتبة وعلماء الشيوخ.

ولكن مع تمسك المسيح بالعهد القديم، استطاع في نفس الوقت أن يمتد بالتعليم

---

(٥٩) مر ٢: ٢٥ و٢٦.

(٦٠) مر ٧: ٦ ــ ١٣.

(٦١) مر ١٢: ٣٦.

والوصايا إلى إعلان حقائق روحية جديدة ووصايا العهد الجديد، مما يثبت قطعاً أن هناك وحدة جذرية عميقة تربط الوحي أَلِفَه بيائِه.

والمسيح بتعاليمه الجديدة ــ و بالأخص في موعظة الجبل ــ امتد بالوصية (أو على الوجه الأصح امتد بقلب الشعب) من وضعها المنحصر في دائرة العمل والحكم عليه حسب الفعل الظاهري، إلى تتبع النية والضمير الداخلي والمشيئة المحركة للفعل. فبدل أن كانت الوصية «لا تقتل» امتد بها المسيح إلى أصولها ودوافعها الأولى «لا تغضب.» (مت ٥: ٢١)

وبهذا الإمتداد الروحي زحزح المسيح الديانة اليهودية بأكملها من تقوى وعبادة محصورة في دائرة القيام ببعض أعمال والنهي عن بعض أعمال، إلى تقوى قلبية شاملة وطهارة ضمير خالصة؛ و بذلك امتدت حدود الطاعة لله من وضع محدود جزئي موقوف على أداء بعض أعمال والإمتناع عن بعض أعمال إلى طاعة بلا حدود، طاعة ضمير وقلب، مطلوب فيها أن يكون الإنسان في حالة إرضاء لله في كل لحظة و باستمرار. أي أن العبادة بصفة عامة انتقلت من حالة الفَرْض المحدود إلى حالة الشركة.

إلتزام اليهود بحرفية الناموس وفروضه دون التعمق في روحه والخضوع القلبي المطلق لكلمة الله، جعلهم يتلهون في الشكليات و يتمسكون بها و يعبدون طقوساً وأنظمة وترتيبات لا يفهمونها ظانين أنها ترضي الله، فأُخفيت عنهم حقيقة الله كإله يسكن القلب قبل أن يسكن الهيكل و يرى الخفاء و يفحص أفكار وظنون الناس «هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فبتعد عني بعيداً» (*). ولذلك بقي الله

(*) مر٧: ٦؛ راجع إش٢٩: ١٣.

بالنسبة للشعب إله رعود و بروق وحروب، يجازي بعطايا جسدية و ينتقم بالحرمان من خيرات الدنيا وكفى.

امتداد المسيح بالوصية ودخوله بها إلى العمق الروحي، أدخل الإنسان داخل قلبه حيث إمكانية التلاقي مع الله والتعرف عليه، حيث تصير العبادة عبادة قلب لا شفتين، وإكرام الله يبلغ إلى طاعة الحياة كلها بطاعة النية والضمير حيث كل مخارج الحياة، حيث تصير العبادة حياة والحياة شركة مع الله. المسيح لما امتد بالوصية إلى الداخل، امتد في الواقع بالإنسان كله حتى جعله في مواجهة الله: «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل.» (٦٢)

ولكي ينقل المسيح إلى الإنسان الإحساس بالصفات اللاهوتية للآب، اعتمد على الأمثلة التي تعطي إحساساً واقعياً في ذهن الإنسان وروحه، متحاشياً كل الإصطلاحات اللاهوتية والصفات النظرية التي تشغل العقل وتربكه دون أن تُحدث أي أثر تَقَوِي في قلب الإنسان. فمثلاً لكي يوصل إلينا صفة المعرفة الفائقة عند الله وقدرته على كل شيء، عرّفنا أن الله يحصي حتى شعور رؤوس أولاده، وحتى العصفور الصغير ليس منسياً أمامه بل ولا يسقط على الأرض دون إذن منه!! (٦٣)

وعلى العموم فالمسيح لم يقدم لنا تأملات عن كمال الله وصفاته، ولكنه بتعليمه وأمثاله وسلوكه الشخصي جعلنا نحس إحساساً لا يجارَى برحمة الله وحبه واهتمامه بنا و وجوده معنا.

---

(٦٢) مت ٥ : ٤٨.

(٦٣) مت ١٠ : ٢٩ و٣٠؛ لو١٢ : ٦ و٧.

المسيح لم يسلمنا أية فكرة مجردة عن الله، ولكنه سلمنا شخصه وجعلنا نستوعبه في قلبنا وليس في عقلنا أو خيالنا، ونقترب إليه **كآب** في جرأة البنين ودالتهم واثقين أنه يسمع لنا لأننا عرفنا أنه يحبنا! «الآب نفسه يحبكم.» (٦٤)

حينما ننصت لتعاليم المسيح لا نشعر أن الله بعيد بعداً كلياً أو أنه غير مدرَك أو غير معروف أو غير مفهوم، كما أننا من الجهة الأخرى لا نحس أنه قريب قرباً محسوساً مجسداً أو أننا نستطيع أن ندركه إدراكاً محدداً.

المسيح تحاشى هذين الإتجاهين اللذين طالما عثر فيهما العقل البشري.

فالله، في تعليم المسيح، فائق مطلق وقدوس كلي وكامل في كل شيء، ندرك وجوده، ولكن لا ندرك كماله.

نصلي إليه كآب ولكن لا نستطيع أن نفحصه أو نحيط بأبوته.
نقترب إليه كمحب حقيقي لنا ولكن لا ندرك أعماق محبته وحدودها.
نطلبه ليحيا فينا بروحه القدوس ولكن لا ندري كيف يأتي ولا كيف يذهب.
نخشى عدله ولكن نثق في رحمته!
يغفر خطايانا ولكن يظل عادلاً!
يبتدىء بالغفران لننتهي نحن إلى المحبة: «قد غُفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً.» (لو٧: ٤٧)



(٦٤) يو١٦: ٢٧.

الكنيسة تشهد للكلمة وتحدّد قانونيتها

□□□

[أما من جهتي فأنا لا أؤمن بالإنجيل إلا كما يوجهني
إليه سلطان الكنيسة .]

القديس أغسطينوس (٦٥)

كلمة الله تشهد لنفسها فهي تملك الحقيقة التي عند الفحص تظهر واضحة دامغة، وتجعل العقل والقلب ينحنيان أمامها .

الإنسان لا يحتاج إلى عناء كثير ليميز كلمة الله عن كلمة الإنسان، فبرهان الروح والقوة ينبعث من كلمة الله و يلازمها بدون دفاع أو شهادة لأن الإلهام انطباع لا يفارق الكلمة . و يسيرٌ من البصيرة يكفي لإستعلان هذا الإلهام والدخول فيه .

صفة الكلمة أنها «سيف ذو حدين» (عب ٤ : ١٢) لم يخلعها فكر الإنسان على كلمة الله، ولكن هذا إعتراف قلوب الأجيال كلها عندما وقعت صريعة لفعلها وتأثيرها .

والإنسان الذي تسكن قلبه كلمة الله هو إنسان جاز أولاً تحت حدّها فلك نِصَالها . وكل من تسلح بكلمة الله يستطيع أن «يُفصِّل كلمة الحق بالإستقامة .» (٢تى٢ : ١٥)

(65) Contra epist Manichaei, quam vocant Fundamenti 6.

المسيح أعلن نفسه، وكشف سر الثالوث، واستودع المعرفة والروح وأموراً كثيرة للكنيسة أولاً قبل أن تستقر فيها كلمة الإنجيل المجموعة والمرتبة والمسجلة بالروح القدس بواسطة التلاميذ والرسل على مدى نصف قرن.

الكنيسة إذن استلمت الإنجيل المكتوب بإلهام الروح القدس بعد أن تأسست قاعدة إيمانها على معاينة شخص الرب ورؤية أعماله ومشاركة حياته وسماع صوته وشرح تعاليمه ومشاهدة معجزاته. فاستقرت كلمة الله كبناء محكم على قاعدة عريضة وعميقة.

هذه القاعدة العريضة هي التقليد، **فالتقليد هو استمرار فعل المعاينة والرؤية والمشاركة والسماع والشرح والمشاهدة في قلب الكنيسة كأساس ملتحم بالإنجيل ويحمله، هذا الأساس ظل مصدر إلهام إضافي كدرع متين للكلمة.**

[إني أستطيع أن أصف نفس المكان الذي كان يجلس فيه المبارك بوليكاربوس ويتحدث، وأذكر خروجه ودخوله وكيفية معيشته وهيئته ونفس حديثه للناس وتعليقاته على الأحاديث التي جرت بينه وبين يوحنا الرسول والآخرين الذين رأوا الرب. هذه الأمور صارت إليَّ برحمة الله، وقد أصغيت إليها بانتباه ولم يسقط منها شيء ولم تسجَّل في ورقة، **ولكنها في قلبي**، وأنا بأمانة كثيرة أستعيدها باستمرار بنعمة الله.]

القديس إيرينيئوس(٦٦)

[هؤلاء الغاليون (أي الفرنسيون) يؤمنون، ولهم خلاصهم مكتوباً في قلوبهم

(66) Eusebius V-XX-4-7.

بالروح بدون حبر وورق. وباعتناء شديد يحفظون التقليد القديم. وقد آمنوا وليس عندهم أي وثائق مكتوبة.]

القديس إيرينيئوس (٦٧)

[فإذا أتى واحد من الذين كانوا يتبعون الشيوخ وسألته عما قاله بطرس وأندراوس، فأنا لا أظن أن ما أحصِّله من الكتب ينفعني بقدرما أنتفع به من ذلك الصوت الحي الباقي.]

القديس إيرينيئوس (٦٨)

هذه الميزات الموروثة في الكنيسة جعلت للكنيسة هيبةً وسلطاناً باطنياً قائماً على خبرة ودراية ومواهب ممتازة وعلاقة شخصية بالرب وأهّلت الكنيسة أن تكون حافظة وحارسة وشارحة للكلمة، تميِّز ما هو ملهَمٌ منها وما هو غير ملهَمٌ، وتحدد الكتب القانونية من الكتب الثانوية. كما ألهمها الروح أن ترفض الكلمة المغشوشة والتعاليم المنحرفة، وتقطع بسلطانها وتحرم كل كلمة خارجة عن الحق.

[يوجد حد واضح يفصل كل الكتابات التالية للأزمنة الرسولية عن الكتب ذات السلطان القانوني للعهدين القديم والجديد. وقد انحدر إلينا سلطان هذه الكتب من الرسل خلال تعاقب الأساقفة وامتداد الكنيسة، و بسبب سمو مكانة هذا السلطان ونفوذه يلتزم كل مؤمن وكل فكر تقي بالخضوع له. الكتاب المقدس له قدسية خاصة به، و بسبب هذه الميزة القائمة في كل الأسفار المقدسة فنحن ملتزمون أن نقبل كل ما تقدمه لنا أقوال الأسفار القانونية سواء كانت بفم نبي أو إنجيلي.]

القديس أغسطينوس (٦٩)

(67) Adv. Haer. III-4-2, i, 264.
(68) Eusebius III. XXXIX-3,4.
(69) Contra Faustum XI, 5.

سلطان الكنيسة حفظ سلطان الكلمة كما يحفظ الجيش الملك. ولكن ليس معنى هذا أن سلطان الكنيسة أعلى من سلطان الكلمة، فالكلمة تشهد للكنيسة، والكنيسة تشهد للكلمة.

الكنيسة تحكم بالكلمة فيزداد سلطان الكنيسة و يثبت سلطان الكلمة.
سلطان الكلمة وسلطان الكنيسة وسلطان التقليد واحد وهو سلطان المسيح وحياته الذي يقبله المؤمن لما يعتمد.

الكلمة روح الكنيسة الذي يحفظ وجودها المسيحي، والكنيسة حفظت الكلمة بحياتها وسفكت من أجلها دماءً طاهرة كثيراً جداً في أجيال متعاقبة بلا كلل، لذلك صارت **هيبة الكلمة وسلطانها وأصالتها مرتبطة إرتباطاً جوهرياً بالكنيسة**، لا من حيث استمرارها فحسب، بل من حيث حفظ أصولها نقية صافية وتحديد معانيها الأساسية بصورة واضحة قاطعة.

كلمة الله نقية صافية، فهي منبع الحق والنور والحياة، ولكن لم يضمن هذا النقاء ويحفظ هذا الينبوع من أي كدر إلا الكنيسة وحدها.

[المعرفة الحقيقية قائمة في تعليم الرسل، وقيام الكنيسة في العالم كله، وفي امتياز استعلان جسد المسيح بواسطة تتابع الأساقفة الذين أعطوا الكنيسة القائمة في كل مكان أن تكون محروسة ومُصانة دون أي تزييف أو ابتداع في الأسفار بسبب طريقة التعليم الكاملة والمتقنة التي لم تستهدف لأي إضافة أو حذف، وذلك بقراءتها (كلمة الله) بغير تزوير مع مواظبة شرحها باجتهاد بطريقة قانونية تلتزم بالأسفار دون أي خطورة من جهة التجديف. و(فوق كل شيء) بواسطة المحبة الفائقة التي

هي أكثر قيمة من المعرفة وأعظم من النبوة والتي تفوق كل ما عداها من المواهب.]
القديس إيرينيئوس (٧٠)

والذي يريد أن يتجاهل هذه الحقيقة فليقرأ التاريخ ويسأل كم عانت الكنيسة في حفظ الكلمة وكم دفعت ثمناً لصحة معناها، من نفي وتشريد وتقطيع وتعذيب وموت بلا رحمة.

ولكن الكنيسة لم تعاني من أجل كلمة الله كمتفضلة عليها، فالكلمة هي حياتها، والكنيسة بدون الكلمة تفقد وجودها ومعناها.

وإذا نظرنا إلى الكنيسة بمفهومها السري كجسد المسيح، لا نعود نفرق بينها وبين الكلمة، فالإنجيل هو كلمة المسيح والكنيسة هي جسد المسيح، **فيستحيل أن نقرر أيها أعلى أو أيها أسبق!**

يلزمنا إذن أن نستمد روح الكلمة في قلوبنا ملتحماً بروح الكنيسة، ونقبل فعل الكلمة وتأثيرها من خلال دعاء الكنيسة وسرها وصلاتها. فالكلمة أكثر من منطوق لفظي أو سماعي، فهي تاريخ كنيسة حي (**تقليد**)، وهي روح فعّال (**أسرار**) وهي حياة خصبة (**شركة مع المسيح**.)

ـ **ولكي نبلغ إلى كمال الحق الذي في الكلمة:** يلزم أن نفحصها وندرسها على ضوء حياة الكنيسة وجهادها ومجامعها وقديسيها وعلمائها ومعلميها.

[ليت القارىء يستوضح المعنى من القاعدة الإيمانية التي يكون قد استخلصها

---

(70) Adver. Haer. IV 33-8, II-11.

من صفحات الكتاب، ومن سلطان الكنيسة (التقليد)]

القديس أغسطينوس(71)

[إيمانـنـا ثـابـت ونقي وهـو الـوحيد الحق، إذ له البرهان الواضح من الأسفار، المشروحة بمقتضى الطريقة التي أوضحتُها.]

القديس إيرينيئوس(72)

ــ **ولكي نحصل على أثرها وفعلها الروحي في حياتنا**: يلزم أن نقبلها كروح يتخذ فعله فينا من خلال الأسرار و بواسطتها.

[الـرسـل كـرزوا بـكـلـمـة الحـق فـولـدوا كنائس (أشخاص) ليس لأنفسهم ولدوها، ولكن للمسيح، لأن الرسول بولس يقول: «لأني **ولدتكم** في المسيح يسوع **بالإنجيل** (١ كو٤: ١٥)... لقد أسس الله هيكله في كل مكان واضعاً أساساته على الأنبياء والرسل (أف ٢: ٢٠).]

القديس أغسطينوس(73)

ــ **ولكي نحصل على تحقيق وعودها**: يلزم أن نقبلها كحياة شركة مستمرة مع المسيح...

[المسيح هو الكنز المخفي في الحقل (مت١٣: ٤٤). والحقل هو الأسفار.]

القديس إيرينيئوس(74)

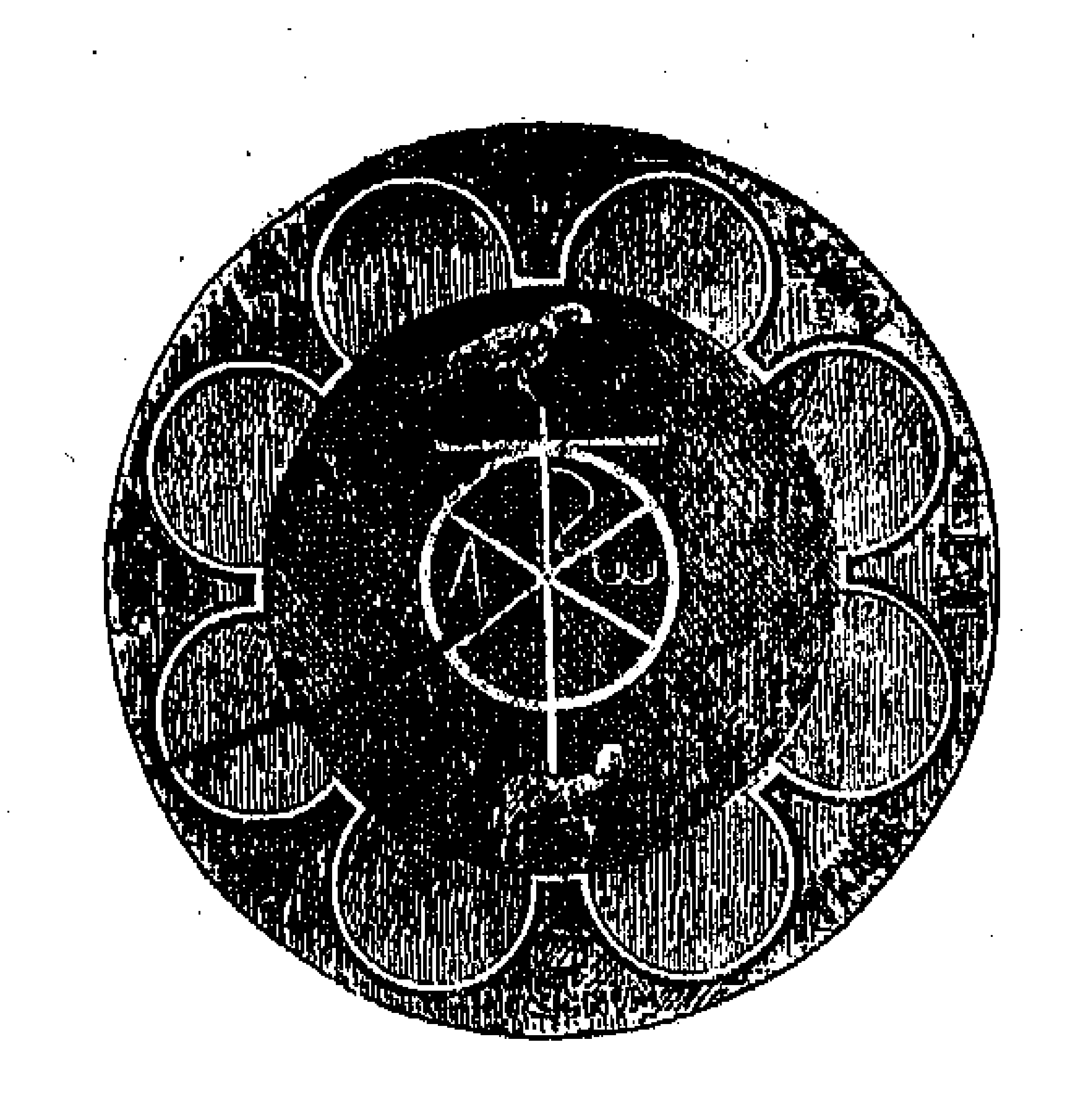
والأسرار في الكنيسة «كلمة منظورة». فهي أفعال حسية للكلمة للحصول على فعلها السري اعتماداً على صدق مواعيد الله بتدخل الروح القدس. وكما أن الكلمة

---

(71) De Doct. Christ. III,2.
(72) Adver. Haer. III, 21,3; i-354.
(73) Enerrat. in Ps. 44,32.
(74) Adver. Haer. IV-26-1, i, 461.

هي أصلاً استعلان لله ومشيئته، وفي نفس الوقت تحمل قوة غير منظورة لتكميل قصده أو وعده، هكذا أيضاً السر تماماً، الذي هو في جوهره تحقيقٌ للكلمة. فالسر يفيد ظهوراً إلهياً أو حضور الله بواسطة الروح القدس، وتحقيقاً لمشيئة الله من أجل خلاص الإنسان وحياته، حيث يتم من خلال السر عمل إلهي على صعيد الواقع إنما بصورة سرية، سواء كان خليقة جديدة أو تقديساً أو غفراناً أو وحدانية روح وجسد أو مسحاً للخدمة.

وكما يقبل الإنسان الكلمة كحدث إلهي فائق يدخل حياته فيستوعب فيه حقيقة الله و يُوهَب إستنارة، كذلك في الأسرار، إنما بواسطة ملموسة حيث تتحد الحقيقة الإلهية بالواقع الإنساني، فيوهب الإنسان نعمة الله.



الروح القدس كشاهدٍ وناطقٍ وعاملٍ بالكلمة

□□□

الروح القدس منبثق من الآب، وفي انبثاقه يحمل طاقة حياة وحركة للخليقة كلها في دورات متقنة من النظام والترتيب الدقيق. كذلك يحمل في انبثاقه للإنسان خاصة طاقة روحية خلاقة، وحرية وفهماً وحكمة وصورة إلهية متقنة. هذه الطاقة الخاصة التي يحملها للإنسان يوصلها له إما بطريقة سرية مباشرة لا ندرك كنهها، كفعل عطاءٍ سري حسب جود الله وصلاحه، وإما بطريقة غير مباشرة إنما سرية أيضاً كما في أسرار الكنيسة بتوسط كاهن وصلاة ومادة وإيمان، وإما بطريق الكلمة حيث نتقبل أعمال الروح وفعله عن طريق الفهم والإرادة والإيمان.

وكما أنه من خلال الروح القدس نتقبل عطايا الله كلها، و بدون توسُّط الروح لا يتم لنا شيء من قِبَل الله على وجه الإطلاق؛ كذلك بواسطة الروح القدس أيضاً نقدّم لله أفعال العبادة كلها. إذ بدون تعطُّف الروح القدس وسكب نعمته علينا باستمرار تصير أعمال الإنسان كلها ليست ذات قيمة بل ومرفوضة «متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا إننا عبيد بطالون»(٧٥). فالروح القدس يقدس أعمالنا بأن يرفع منها العنصر الذاتي البشري حينما نستدعيه ليباشر تتميم العمل بنعمته، و بذلك يجد الإنسان نعمة لدى الله. «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.»(٧٦)

---

(٧٥) لو١٧ : ١٠.

(٧٦) يو٤ : ٢٤.

الـروح الـقـدس يحمل كلمة الله من الله إلى روح الإنسان، فهو حاملٌ للكلمة: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه **لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به... يأخذ مما لي ويخبركم.**» (٧٧)

كـذلـك فإن الروح القدس يعطي الإنسان قدرة روحية خاصة هي نعمة الوحي والإلهـام، حتى ينـطق مباشرة بكلمة الله التي يسبق الروح القدس و ينطقها فيه بلا صـوت. وهي إما تكون بفرح وسرور كما في وحي كثير من المزامير التي كانت عبارة عـن أشعـار وأنـاشيد: «داود قال بالروح ...» (٧٨)، وإما تكون عن اضطرار وتألم كما في بعض الأنبياء كإرميا: «قد أقنعتني يا رب فاقتنعتُ وألححتَ عليَّ فغلبتَ... كـلـمـة الـرب صارت لي **للعار وللسخرة** كل النهار. فقلتُ لا أذكره **ولا أنطق** بعد بـإسـمـه، فـكـان في قـلبي كـنـار محرقة محصورة في عظامي، فمللت من الإمساك ولم أستطع.» (٧٩)

كما أن الـروح الـقـدس قـد يـصير هـو نـفـسه الـنـاطق مباشرة بالكلمة إنما بفم الإنـسـان: «فتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مـهـما أُعـطـيتم في تـلـك الـسـاعـة فبذلك تكلموا لأن لستم **أنتم المتكلمين بل الروح القدس.**» (٨٠)

كـذلـك فـإن الـروح الـقـدس قد ينطق هو مباشرة بلغة لا يعرفها نفس الإنسان الـذي ينطق بها، حيث هنا يبلغ الإلهام إلى أقصى حالاته الناطقة كما حدث في يوم الخمسين حينما تكلم التلاميذ وكل من حلَّ الروح القدس عليهم بألسنة غريبة، أي

---

(٧٧) يو١٦: ١٣ و١٤.
(٧٨) مر١٢: ٣٦.
(٧٩) إر٢٠: ٧ــ ٩.
(٨٠) مر١٣: ١١.

بلغات أخرى لم يدرسوها قط في حياتهم، وهنا يظهر الروح القدس كحامل للكلمة الإلهية وناطقها بصورة إعجازية.

هذه صور للإلهام، أي بعض الطرق التي تقبّل الإنسان بواسطتها كلمة الله وسجلها، وهي في عمومها توضح تدخُّل الروح القدس كعامل أساسي في تبليغ كلمة الله للإنسان.

أما موقف الإنسان العادي تجاه كلمة الله المكتوبة في الأسفار المقدسة، فهو موقف عكسي، إذ هنا يقف الإنسان عاجزاً تجاه الكلمة محتاجاً إلى الروح القدس ليكشف رسالتها بالنسبة له. فالذهن البشري لا يستطيع من تلقاء نفسه أن يدخل إلى سر الكلمة، لأن كلمة الله صورة حرفية تحمل حقيقة فائقة متعالية جداً عن مستوى ذهن الإنسان وتعبِّر عن مشيئة الله غير المفحوصة!

الروح القدس يهب الإنسان نعمة هي فعل استنارة: «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» [٨١]. وإذ يدخل الذهن في مجال نعمة الروح القدس، يحدث كشفٌ للحقيقة الإلهية التي في الكلمة واتصال خفي بمصدرها أي بالله. وهذا يعتبر عكس السبيل الذي اتخذته الكلمة في طريقها من الله إلينا. فالكلمة تصدر أولاً عن الله يحملها الروح القدس ثم ينطقها سراً بالإلهام في روح النبي أو الرسول. ومن الجهة الأخرى يبادر الروح القدس و يرافق القارىء العادي بنعمته ليفتح ذهنه فيفهم الكلمة و يقبل السر الذي فيها حتى يمتد بروحه فيتصل بالله مصدرها.
ومن هذا يتضح أن الروح القدس لا يفارق الكلمة قط، من الله إلينا ومنّا إلى الله.

---

(٨١) لو٢٤ : ٤٥.

وكما أن الروح القدس يحرر أعمال الإنسان من العنصر الذاتي الأناني فيجعلها أعمالاً مقدسة مرضية ومقبولة أمام الله، حيث يحوز الإنسان بواسطتها نعمة لدى الله: «نعمّا أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً في القليل...» (٨٢)، كذلك أيضاً بفعل الروح القدس في الإنسان، فإنه (أي الإنسان) حينما يدرس الكلمة معتمداً على الروح القدس بتوسل وخضوع، فإن الروح القدس يحرر الفكر من عنصر الذات فتصير الكلمة مجالاً حراً ينطلق فيه ذهن الإنسان محمولاً على نعمة الروح القدس ليبلغ حتى «أعماق الله.» (٨٣)

بدون نعمة الروح القدس لا يمكن أن تكشف الكلمة أسرارها للإنسان، لأن الإنسان حينئذ يكون منحصراً في ذاته، مشدوداً لرأيه، أسيراً لقياسات المنطق العقلي وتحديدات كثيرة وهمية من صُنع الإنسان.

«الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (٨٤): هنا وضع المسيح الروح أولاً ثم الحياة. ليس هذا عفواً، فإن الكلمة في الأصل والأساس هي حقيقة من حقائق الخلود والأبدية، هي صورة معبِّرة عن مشيئة فائقة غير محدودة، أي مشيئة الله، لذلك هي روح لأنها الصورة الفعالة لمشيئة الله، والمشيئة الفعالة هي حقيقة داخلية ذاتية، وليس ما يعبِّر عن الحقيقة الداخلية الذاتية الفعالة إلا الروح.

يلزم، إذن، أن نقبل الكلمة أولاً أنها «روح» يعبِّر عن مشيئة الله الفعالة، ثم بعد ذلك نأخذها كـ«حياة»، أي ندخل بها إلى مستوى ما هو بشري مخلوق لنحيا بها في الواقع، أي نطبِّق الكلمة على السلوك حيث الكلمة كروح هي مشيئة الله الحية الفعالة.

---

(٨٢) مت ٢٥: ٢١.
(٨٣) ١ كو ٢: ١٠.
(٨٤) يو ٦: ٦٣.

الكلمة، إذن، بتعبير المسيح «كروح وحياة» هي في الواقع اتحاد الروحي بالبشري، أي اتحاد مشيئة الله بواقع الإنسان في حياته. حيث تكون النتيجة الحتمية رَفْع الإنسان من تحت نير العالم وجَعْله إنساناً روحياً أو خليقة إلهية روحانية، أي متحرراً من كل سلطان المادة.

الروح القدس كل دَأْبه واهتمامه المتواصل في العالم الآن، هو أن يحولنا بواسطة الكلمة مما هو بَشَري إلى ما هو إلهي ليتمجد الله فينا بالكلمة و بشهادة الروح القدس المتواصلة.

«وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (٨٥). الروح القدس يعمل بالكلمة في ضمير الإنسان، جاعلاً من الكلمة مجالاً يباشر فيه قوته لتحرير روح الإنسان من كل ما يحجز الطريق أمامها و يعتم الرؤيا. الكلمة كمشيئة الله الفعالة تهب الإنسان طاقة تحررية ناشطة غلاَّبة، يستطيع الإنسان بواسطتها، وهو معتمد على الروح القدس ومؤازرته، أن يحطم أغلال الشهوات والعادات والبيئة وسطوة المنفعة والسمعة والكرامة وكل القيود والآلهة الكاذبة.

الروح القدس يشهد بإستمرار في قلب الإنسان ضد العالم، و ينبهه إلى مخادعاته التي يلفها حول عنق الإنسان ليجعله أسير الأرض، وحينما ينتبه الإنسان إلى الحق يصير بالضرورة في صراع مرير مع العالم باذلاً كل الجهد لتقطيع ربطه.

الروح القدس من أولى وظائفه «تبكيت العالم» (٨٦)، الروح يبكت العالم بواسطة المؤمنين الأتقياء البسطاء المتمسكين بكلمة الله ضد هزالة العالم: «هم

---

(٨٥) يو١٦ : ١٣.

(٨٦) يو١٦ : ٨.

غلبوه بدم الخروف وبكلمة **شهادتهم** »(87). وإذ يبكت الإنسانُ العالمَ بكلمة شهادته بتلقين الروح، يصير تحت اضطهاد جنوني ومقاومة وتهديد الموت.

شهادة الروح القدس بالكلمة في قلوب الأتقياء جعلتهم في حرب مع العالم، حرب أبدية «وللرب حرب مع عماليق من دور إلى دور» (88). ولكن الغلبة للروح القدس إذ يحرر الإنسان من العالم «ولم يحبوا حياتهم حتى الموت» (89)، وهذه هي معجزة المسيح: «ثقوا أنا قد غلبت العالم.» (90)

الروح القدس يؤسس في الإنسان بواسطة الكلمة (إذا أخلص لها الإنسان) وعياً روحياً فائقاً يسمو فوق كل **حقائق** العالم، دون أن يتعالى عليها أو يجحدها، وإنما يرتفع بها و يُدخلها معه في نور الأبدية وفي مجد التجلي: «ثم رأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة.» (91)

غاية شهادة الروح القدس بالكلمة ليس أن يعرِّفنا «جميع الحق» (92) وحسب، ولكن ليقودنا إلى حرية البنين التي هي غاية الحق: «وتعرفون الحق والحق يحرركم» (93). حيث التحرر هو العتق من استعباد «الذات» والناس والعالم.

الروح القدس هو «روح الحق» (94) وهو جوهر الحرية وقوتها ومجالها الحي: «وحيث روح الرب هناك حرية» (95). و بتأسيس الحق والحرية، لا كمبدأ

(87) رؤ12 : 11 .
(88) خر17 : 16 .
(89) رؤ12 : 11 .
(90) يو16 : 33 .
(91) رؤ21 : 1 .
(92) يو16 : 13 .
(93) يو8 : 32 .
(94) يو16 : 13 .
(95) 2 كو3 : 17 .

ذهني ولكن كحياة وعمل في صميم العالم، يكون الروح القدس قد أسَّس للملكوت الآتي، إذ يكون قد أعدَّ النفس الإعداد النهائي للإتحاد بالله بلا عائق.

تحرُّر الإنسان، أو الحرية الإنسانية الروحية، التي من أجلها يصارع الروح القدس بالكلمة داخل الإنسان منذ البدء ضد العالم، وضد محاولاته المستميتة لإستعباد الإنسان بطرق وأشكال لا نهاية لها، هذا التحرر لا يكون بانعزال الإنسان عن العالم، أو بمجرد الشعور بالبغضة نحوه «لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (٩٦). فالتحرر الحقيقي من العالم يكون **بالإنتصار عليه،** فتكون حياتنا فيه ولكن ليست منه! «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم» (٩٧)، هذه الحقيقة لا تعني أن ننكر وجودنا الجسدي في العالم، أو نزدري بخدمته وتأدية واجباتنا له، ولكن تعني أننا نستمد قوتنا وإلهامنا من الله، بالمعرفة الحقة من الكلمة الإلهية، حتى نطفو فوق العالم ولا نغرق في تياراته أو نستسلم لحتمياته الوهمية. و بالحق نستطيع أن نخدم ولكن نغلب، و بالروح يمكن أن نعيش في صميم العالم ولكن نظل متحررين منه.

الروح القدس حينما يباشر سلطانه على الإنسان يحرره ككل، فلا ينعزل الروح عن الجسد، أو ينعزل الإنسان عن الحياة، أو تنعزل الحياة عن العالم، ولكن يعيش ككل متحرر. يعيش في الجسد ولكن غالباً للجسد، يؤدي واجبات الحياة ولكن غالباً للحياة، يحيا في العالم ولكن غالباً للعالم [وقفت على قمة العالم حينما شعرت في نفسي أنني لا أخاف شيئاً ولا أشتهي شيئاً] **ـ القديس أغسطينوس.**

فإذا بلغ الإنسان هذه الحرية فهو يستطيع أن يحيا لله، سواء في أسواق مدينة صاخبة أو في هدوء الجبال والمغائر والأديرة.

---

(٩٦) يو١٧ : ١٥.

(٩٧) يو١٧ : ١٦.

الباب الثانى

خدمة الكلمة

«... وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة».

(أع ٦: ٤)

[الإنجيل هو فم المسيح، هو في السماء ولكنه لم يكف قط عن أن يتكلم على الأرض.

وطالما خادم الكلمة يتكلم بالحق فالمسيح يتكلم فيه.]

القديس أغسطينوس

خدمة الكلمة باعتبارها صوت المسيح المحيي

□□□

«أُشْهِدُ عليكم اليومَ السماءَ والأرضَ: قد جعلتُ قدامَّك **الحياةَ والموتَ**، البركةَ واللعنةَ، فاخْتَرْ الحياةَ لكي تحيا أنت ونسلك. إذ تحبُّ الربَّ إلهك **وتَسْمعُ لصوته** وتلتصقُ به لأنه هو حياتُك.» (١)

□

خدمة الكلمة هي موضوع حياة أو موت في أوج معناها الروحي. فخادم الكلمة يحمل رسالة حية من فوق، فيها رائحة حياة وفيها رائحة موت أيضاً، يخاطب بها الأذن والقلب كمن يوصل إليهما نداء القيامة وفعلها...

الساعة التي يقف فيها الخادم لينادي بكلمة الله هي هي الساعة التي أعلنها السيد الرب كميعاد للحياة للذين طال عليهم الرقاد في قيود الموت: «هوذا تأتي ساعة **وهي الآن** حين يسمع الأموات **صوت ابن الله** والسامعون يحيون» (٢). وصوت ابن الله هو كلمته التي هي روح وحياة.

حينما ينادي الخادم بالكلمة يمهد لنداء البوق الأخير ويختم على حق الله، كذلك هو يشبه صراخ المسيح على قبر لعازر، والذي يسمع يحيا... السامع الكلمة إنسان مقيَّد غالباً، يداه ورجلاه مربوطات بأقمطة الموت، ووجهه ملفوف بمنديل، فهو لا

---

(١) تث ٣٠ : ١٩ و٢٠.   (٢) يو ٥ : ٢٥.

يرى ولا يسمع!... العالم خدعه ولفّ عليه أحبولته وأدخَله تحت طاعته، فإما أن يكون قد استهواه بشهوة الجسد وأوهمه بحتميتها، فلما انصاع للوهم سلط عليه غرائزه وأغلق عليه نفسه، وإما أن يكون قد خدعه بالتيارات الإجتماعية وضرورتها، فلما انخدع بها ساقه في دروبها الملتوية حتى أبعده عن نفسه، وإما أن يكون قد بهرج له المُثُل الفكرية والأيديولوجيات النظرية، فلما أُخذ بها انحرف به عن بساطة الحق وجادّة الإيمان...

وسواء كان جذب العالم للإنسان من ناحية الجسد أو النفس أو الفكر، فالغاية دائماً هي سلب الإنسان حرية الروح، حرية التحرك إلى فوق، حرية الإنسجام مع الحق بلا تحفظ، حرية الوجود المسيحي في وحدة الفكر والنفس والروح...

لذلك فالسامع يحتاج إلى صوت المسيح الذي في الكلمة، والذي ينادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق، ونفس القوة التي أقامت لعازر تقيم المقيدين بالكلمة، لأن وعد الله صادق وكلمته أمينة... أما الخادم فيلزم أن يكون قد سمع هو صوت ابن الله واستقر في أعماقه حتى يردده كما سمعه...

خدمة الكلمة مشقّة للناطق ومشقّة للسامع، لأن كليهما يواجهان بواسطتها سطوة الموت وأربطته ورائحته. فالكلمة ترفع الحجر الذي يخفي تحته عظام أموات وكل نجاسة. فلا مناص من أن يواجه الميت حقيقة نفسه، والخادم يشترك معه حتى يقيمه.

لذلك وإن كانت رسالة الكلمة بالنهاية قيامة وحياة، إلا أنه لا بد أن يباشر معها الخادم السير خلال القبور، ويجوس بواسطتها وسط الظلام و يواجه برودة الموت، و يتعامل كثيراً مع آذان لا تسمع وعيون لا تبصر وقلوب لا تحس!

[أنا إذا احتفظت بغناي وحدي ولم أُشركـكم معي، أرى الإنجيل يرعبني، فإذا قلت: أي نفع يصيبني أن أعكر صفو الناس، أو ماذا يعود عليَّ من أن أكون حملاً ثقيلاً على الخطاة، أو أي خير لي أن أهتم فيا للآخرين؟ ولكن **أرى الإنجيل يرعبني**.

أما أنا فأعلم كيف أعيش بمقتضى ما تسلمت من الوصية و يكفيني أن أحفظ ما تسلمت...

أنا لست في حاجة أن يغريني أحد لحياة الهدوء والسلام والحرية المعزِّية، فلا يوجد شيء قط أفضل من التأمل في الكنوز السمائية في الهدوء... هذه الحياة الحلوة حقاً...

أما الخدمة و بناء النفوس (وما يتبعها) من تعنيف وإتهام وعقوبات، وأن يُفني الإنسان حياته من أجل واحد، فهو حمل ثقيل ومهمة شاقة وعمل مضني... ولكن من ذا يستطيع أن يستعفي منه؟ **لأن الإنجيل يرعبني!**... عندما أسمعه يقول: «من فمك أدينك أيها الخادم الشرير، فإن كنت تعلم أني إنسان قاس... فلماذا لم تعط فضتي للصيارفة فكنت أسترد مالي مع الربح؟» (٣)

لذلك ... أنا أتكلم وأرفعْ صوتي ولا أصمت **لأني أخاف من الله!** من ذا الذي لا يفضل السكوت والهروب من مسئوليتكم؟

ولكننا نحن الخدام ارتضينا أن نحمل النير الذي **لا نستطيع** ولا يمكن أن نلقيه عن أكتافنا.]

القديس أغسطينوس (٤)

(٣) لو ١٩ : ٢٢ و٢٣ .

(4) Frangipani II,4.

الكلمة لا تقيم النفس بسهولة، لا بد من معاناة جذب معاكس. فالموت يعمل بلا هوادة ليبتلع حرية الإنسان وإرادته حتى يُفقده القيامة. ولكن قوة الروح في الكلمة فعّالة، إذا امتلكها الخادم فقد تسلح بقوة محررة قاطعة لكل أربطة الموت.



تقديم الكلمة كشركة في حياة المسيح

□□□

[إن البذرة التي نولد منها ثانية هي كلمة الله أي الإنجيل لذلك يقول الرسول: «لأني ولدتكم في المسيح بالإنجيل» (١ كو٤: ١٥)]

القديس أغسطينوس (٥)

كل تدبير الله المخفي منذ الدهور والمكنون في مقاصده منذ الأزل لخلاص الإنسان وإسعاده استُعلن في شخص يسوع المسيح الذي أكمل بتجسده وصلبه وقيامته كلمة الله التي تكلم بها منذ الدهر مع جميع الآباء... فكلٌ من التجسد والصليب والقيامة يختص بتتميم رموز ونبوات ومواعيد، و بالثلاثة وفَّى المسيح كل غرض الكلمة بكل اتساعها وعمقها وارتفاعها.

فبالتجسد أكمل الله وعد حضوره، و بإتحاده بطبيعة الإنسان دخل في عهد زمالة وشركة وأصبح سنداً شخصياً للإنسان ومعيناً نظيره. لقد أخفقت حواء في أن تكون أكثر من معين جسدي، فتنازل القدير وأكمل عجز الإنسان الروحي: «ليس جيداً أن يكون آدم وحده» (٦) فصار روحاً رفيقاً للرجل وللمرأة.

إن التجسد بالنسبة لخدمة الكلمة يُعتبر دعوة من الله صريحة وإلهاماً للدخول مع كلمته في عهد اختيار ومرافقة، عهد شركة وإتحاد كعروس مع عريس، **فتكون الكلمة في القلب كالمسيح في داخل كنيسته**، في موقف تقابل دائم وعهد أبدي.

---

(5) Contra litteras Petllianti II ii.

(٦) تك ٢: ٨.

الكلمة للإنسان معزٍّ ليس له مثيل، فالروح الذي فيها يئن في أحشائنا رحمةً ولطفاً وتودداً، وَصَفه المسيح بتحنن السامري الصالح الغريب الجنس على الإنسان الساقط على الطريق النازل من مدينة الله إلى قرية المباهج الدنيوية، الذي وقع وسط لصوص غير منظورين فسلبوه قدرة القيام والمسير وضربوه بجروح تستنزف منه تقرير المصير، وتركوه عبداً أكثر منه حراً. (٧)

الكلمة عندها خمر وعندها زيت تغسل وتطهر «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به.» (٨)

الإنسان بدون تقوية الكلمة وعزائها ورفقتها الدائمة، هو كغريق لا يستطيع أن ينجي نفسه.

خادم الكلمة يكشف سر صداقة الكلمة المخفى في سر التجسد، ووعد الرب بالحلول والمرافقة لكل نفس تؤمن بالذي يُقال لها.

التجسد دعوة للدخول مع الله بواسطة الكلمة في صلة أبدية ورفقة وحب وألفة لا تنقطع.

أما الصليب فهو موضع الغفران حيث تحققت كلمة المصالحة ومُسحت خطايا الإنسان السالفة بإمهال طول أناة الله.

هنا الخادم يضع أصبعه على كلمة الغفران ويتكلم ولا يكف، حتى يصير الغفران في قلب كل إنسان حقيقة حية كحقيقة الصليب تسري في دمه.

الصليب يلزم أن يكون إلهاماً مستمراً للخادم للإحساس بالغفران حتى يمتزج مع كل نسمة في أنفه، ومع كل نبضة في قلبه، فيكون مستعداً أن يتكلم عن الغفران في

---

(٧) لو١٠ : ٢٥ — ٣٧.

(٨) يو١٥ : ٣.

كل لحظة لينقل لكل سامع رسالة المسيح على الصليب. كلمة الغفران ثمينة جداً للإنسان تشفي كل جراحه الظاهرة والباطنة، أثمن من الذهب الفاني والجواهر التي يز ينون بها الصلبان.

الصليب ينبوع البراءة لكل متعدٍّ، وصفحٌ أبدي لكل زلات الإنسان.
الصليب مقالة عن الغفران لا تنتهي كلماتها.
أما القيامة فهي حدث مزدوج: موت وحياة، لأن القيامة تعني قيامة من الأموات. **الرب مات بسبب عدم طاعتنا وقام بسبب طاعته.**

هنا يضع الخادم أصبعه على كلمة الله **كمرفوضة**، وعلى كلمة الله **كمُطاعة**، و بذلك يكشف لسامعيه طر يق **الموت والحياة** في كل الكتاب؛ و يعلن صرامتها وشدتها حينما تُرفض، وإكرامها وتمجيدها لمن يطيعها.

كلمة الله ذات سلطان مطلق غير محدود على حياة الإنسان كلها، شاءَ أو أبى، «من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه، الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (٩)

كلمة الله قابلة للرفض، غير أن ثمن رفضها باهظ جداً. فهي عنصر الحياة أو كشر يان سري يعبر جسم حياتنا. فإما أن نحفظه فتسري فينا القيامة والحياة الأبدية، وإما نستهزىء به ونقطعه فتنسكب منا الحياة و يدب الموت.

كلُّ رفض الإنسان لوصايا الله وكل خطاياه وتعدياته قَبِلها المسيح على نفسه ومات. وكل طاعة وكل تمسُّك بكلمة الله حتى الموت أكملها المسيح فقام من الموت.

(٩) يو١٢ : ٤٨.

كلمة الله بشقّها السلبي وشقّها الإيجابي أكملها المسيح كلها، كمرفوضة ومُطاعة. فتم القول: إن حرفاً أو نقطة مَنها لن تسقط.(١٠)

مهمة الخادم أن يوضح العلاقة بين قبول الكلمة وقبول القيامة. فإذا رفضنا الكلمة وأهملناها لا ننتفع بموت المسيح وقيامته، وإذا أطعناها قبلنا روح القيامة وصرنا شركاء فيها.

القيامة في حقيقتها نهاية حتمية لحياة الطاعة للكلمة والإلتزام بمشيئة الله بدقة دون فحص، كما أكملها المسيح. و بطاعة المسيح الدقيقة لمشيئة الآب صرنا كلنا طائعين.

وبمقدار تمسُّكنا بكلمة المسيح نكتسب هبات طاعة الإبن للآب.

(١٠) مت ٥ : ٨.

كرامة الكلمة والإخلاص في خدمتها

□□□

«الذي يسمع منكم يسمع مني.»(١١)

للكلمة حدود مقدسة، وكرامة، وهيبة، وسلطان. وبمقدار ما يلتزم بها الخادم يسري فعلها في حياته كلها وتكون له كالسلاح. الإلتزام بحدود الكلمة هو أن لا ينحرف بها الخادم ليخدم بها قضية غير الشهادة لها.

أما الإلتزام بكرامتها فهو أن لا نكرم بها إلا الله وحده.

وأما الإلتزام بهيبتها فهو أن لا نتمادى في تبسيطها وتأويلها لتؤدي معاني ضعيفة ثانوية ممالأة للسامع.

والإلتزام بسلطانها هو أن لا نخضع لما يخالفها.(١٢)

وهكذا بتقديس الكلمة نتقدس بها، وباحترامها نستعلن قوتها، وبالخضوع لسلطانها ننجح في خدمتها.

الإخلاص في خدمة الكلمة يستلزم حرصاً شديداً من جهة الخادم أن لا يتكلم بها إلا الحق مهما كانت الظروف، كمن هو واقف أمام الله يؤدي شهادة أمانة، حيث لا يحاسب الخادم على منطوق الكلام فقط بل على نية قلبه وما يقصده في ضميره من النطق أو الكتابة، كما يقول الرسول بولس: «لأننا لسنا كالكثيرين

---

(١١) لو١٠: ١٦.

(١٢) مر٧: ٦ — ١٣.

غاشِّين كلمة الله لكن كما من إخلاص، بل كما من الله نتكلم أمام الله في المسيح.»(١٣)

هنا الرسول يعتبر نفسه، حينما يقف ليتكلم، أنه واقف أمام الله، وليس ذلك فقط بل يحس انه لا يتكلم مما له، أي أن ذاته ليست صاحبة توجيه أو غاية للكلمة، بل إنه يتكلم «في المسيح» أي منه وله، لذلك يؤكد الرسول أنه لا يغش الكلمة بل بإخلاص يتكلم.

الخادم يغش الكلمة ويهين المسيح إذا تهرب من النطق بالحق حتى ولو بالسكوت.

أو إذا نمّق الكلمة ليزكّي ذاته محاولاً كسب المديح.

أو إذا تكلّم بها محاولاً أن يثبت براءة مذنب أو اتهام بريء.

أو إذا صوّبها خفية ليطعن بها سمعة إنسان أو ضمير أحد.

أو إذا استخدمها لإستدرار عطف الناس أو جمع الأموال أو شراء ضمائر الرؤساء والأغنياء.

فكلمة الله لا تُباع ولا تُشترى ولا تُعرض في الأسواق كتجارة.

كلمة الله لم تُرسَل لكرامة الناس، ولا يليق أن تُنثر تحت أرجل الرؤساء.

قوة الكلمة تنبع من الأمانة للكلمة:

الأمانة للكلمة هي أن يُخضِع الإنسان عقله وقلبه لسلطانها دون أي محاولة لضغطها أو تعويجها لتناسب فكره أو حاله أو هدفه، مهما كان السبب خيِّراً في ذاته.

قوة الكلمة مذخرة فقط لِمَا وُضعت له وفيما أُرسلت من أجله، وكأنها لا تزال خارجة من فم الله.

---

(١٣) ٢ كو٢ : ١٧.

لذلك يلزم أن يكون قلب الخادم أذناً روحية يسمع بها همس الروح القدس حينما يصدّق على الكلمة المنطوقة بإسم الله ومجده: «فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً.» (١٤)

يلزم أن يتوافق صوت الروح في الداخل مع صوت الكلمة في الفم حتى تكون الشهادة واحدة، وحينئذ تخرج الكلمة صادقة كما من فم الله لتعمل عملها الذي أُرسلت له بسلطان ولا تعود فارغة. (١٥)

---

(١٤) يو ١٥ : ٢٦ و٢٧ .

(١٥) إش ٥٥ : ١١ .

الكلمة تدين وتؤدِّب

□□□

الكلمة تعلن رأي الله، وهي بمثابة حضوره. **فطبيعتها كاشفة**، تكشف الظاهر والباطن. لذلك فهي نور للذهن ونور للضمير، وكل فكر أو كل عمل يقترب من نورها يوزن في الحال.

ميزان الكلمة شديد الحساسية. وهو يسجل ويحفظ النتيجة و يسلم صورة منها لوعي الإنسان ليوم الدينونة المحتم: «لأنه لا بد أننا جميعنا نُظهَر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد منا ما كان بالجسد بحسب ما صنع، خيراً كان أم شراً.» (١٦)

الكلمة في حد ذاتها لها سلطان الدينونة الحاضرة، تكشف وتوبخ وتدين، وأحياناً كثيرة تؤدب ولا تشفق. فهي خصم مبارك على الطريق، إذا لم يتراضى معها الضمير ويخضع لحكمها و يوفي كل مطالبها تسلمه للقاضي حيث يُحفظ للحكم الأخير بلا رحمة، حينما يستوفي الإنسان كل الضربات حتى الفلس الأخير. (١٧)

الدينونة الأخيرة تستوفي كل إجراءاتها منذ الآن في هذا الزمان، حيث يمكن للإنسان أن يوفي كل ما في ذمته، حاكماً هو على نفسه، وراضياً بكل ما تشير به الكلمة إيفاءً لمطالب المحبة والقداسة والبر والتعفف: «لأننا لو حكمنا على أنفسنا لما

---

(١٦) ٢ كو ٥ : ١٠.

(١٧) مت ٥ : ٢٥ ــ ٢٦.

حُكم علينا» (١٨). ومهما قسا الإنسان على نفسه تابعاً مشورة الكلمة ملتزماً بصوتها في الضمير حسب وعي الروح، فهذه القسوة لن تزيد عن كونها رحمة وتعطفاً من الله وإلهاماً، حتى يُعتَق الإنسان من هول ما هو آت. لذلك فمهما بدت الكلمة شديدة الوطأة في الحكم وفي التأديب والقصاص في الحاضر فهي في الحقيقة بمثابة المنقذ من الموت والهلاك الأبدي: «ولكن إذ قد حُكم علينا نؤدَّب من الرب لكي لا نُدان مع العالم.» (١٩)

فرق عظيم بين دينونة اليوم الأخير ودينونة الكلمة للضمير في الحاضر.
فالأولى دينونة عدل، أما الثانية فرحمة.

الأولى للنقمة والهلاك الأبدي، أما الثانية فهي للتأديب وللتبرير والحياة.

الأولى عقابها بلا رجاء، أما الثانية فهي كما يقول الرسول: يُرى تأديبها في الحاضر «لأجل المنفعة لكي نشترك في قداسته، ولكن كل تأديب في الحاضر لا يُرى أنه للفرح بل للحزن، وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به ثمر بر للسلام.» (٢٠)

صداقة كلمة الله وحبها لنا يُلزمها أحياناً أن تقف ضدنا كخصم تعنف وتوبخ وترفع يدها علينا بالتأديب، فتتزيا بزي عدو يناصبنا العداء والمقاومة حتى نرجع عن طريق الموت الذي نستحسنه بجهلنا وكبريائنا.

خادم الكلمة بالنسبة للكلمة يكون في هذه الحالة كحاجب المحكمة الذي ينادي منذراً الحاضرين بخوف ورعدة أنها الآن ساعة دينونة ولحظة حرجة ومفترق طرق: «قد كمُل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.» (٢١)

---

(١٨) ١ كو١١: ٣١.
(١٩) ١ كو١١: ٣٢.
(٢٠) عب ١٢: ١٠ و١١.
(٢١) مر ١: ١٥.

الكلمة سيفٌ ونارٌ وعثرة

□□□

الله لم يعطِ كلمته للإنسان لتُزيد سعادته على الأرض أو لتُغْنيه بخيرات الدنيا أو لتضمن له الصحة والنصرة والنجاح والغلبة على الأعداء. كلمة الله مُرسلَة لتوبة الإنسان واقتياده للدخول من الباب الضيق والمسير على طريق كرب يؤدي إلى ملكوت الله إنما بضيقات كثيرة.

توبة الإنسان لا تأتيه كدعوة فرح أو نداء سلام، وإنما تصدمه كصخرة وهو سائر يلهو، وتقف تجاهه كعثرة، فيعثُر في كل الناس وفي نفسه، و يصير في نزاع وصدام مع الواقع، وفي مناقضة مع كل الناس وأمثلتهم وكل ما ألفوه؛ ثم توقفه موقفاً حرجاً ليتصرف عكس ما كان يشتهي، ورغم إرادة الناس؛ وتضعه على مفترق طريقين: واحد يؤدي للموت والهلاك الأبدي والآخر يؤدي للقيامة والحياة الأبدية.

خادم الكلمة يلقي الكلمة أمام سامعيه كصخرة شك وحجر عثرة ليعثر فيها كل لاهٍ عن الحقيقة، ويجعل لهم بالكلمة موقفاً حرجاً، و يقودهم إلى مفترق الطريق و يُلزمهم بصراحة أن يستفيقوا حتى يدركوا الخطر الذي يداهمهم فيختاروا بين الحياة والموت.

المسيح لم يأتِ بكلام يصلح أن يكون مجرد تأملات عقلية ولذة فكرية. كلمة المسيح صليب للفكر وعذاب، نار وسيف ونزاع. كلمة المسيح لا تزال تباشر عمل

المسيح وصدامه مع كل البيئات والتيارات والنيات. فهي في صراع ومأساة مع الناس لتقضّ مضجع راحتهم حتى ينتبهوا إلى أحبولة العالم التي يلفها حول رقابهم. الكلمة تشعل نار الروح في القلب ليحس الإنسان في نفسه بين ما هو للعالم وما هو لله، وهي تلقي في يده سيفاً ليقطع به أوصال العالم فيصير لله.

من هذا الإعتبار تكون خدمة الكلمة حرجاً في حرج. إسمع إرميا النبي: «كل واحد استهزأ بي لأني كلما تكلمت صرخت ناديت: ظلم واغتصاب، لأن كلمة الرب صارت لي للعار وللسخرة كل النهار... لأني سمعت مذمة من كثيرين. خوف من كل جانب. يقولون اشتكوا فنشتكي عليه. كل أصحابي يراقبون ظلعي قائلين لعله يُطغى فنقدر عليه وننتقم منه! ولكن الرب معي كجبار قدير.» (٢٢)

لا بد للخادم أن يقول الكلمة وهو عالم أنه يشعل ناراً إلهية و يثير حرباً مقدسة و يلقي سيفاً سرياً و يسبب فُرقة وألماً لحساب الله! والخادم شريك لما تؤول إليه الكلمة من انقسام في البيت ومن نزاع في القلب ومن ثورة ضد العالم، وهو مكروه حتماً، شاء أو أبى.

خدمة الكلمة دعوة للصليب من فوق الصليب. فالخادم يحمل صليبه و يشارك في صلبان أخرى كثيرة، لأن الكلمة كالنسر تنقضُّ على فريستها فإذا هي في لحظة ليست على الأرض ولا من الأرض... هكذا تتكرس النفوس دائماً. ولكن الخادم يظل يحمل همَّ الجميع.

---

(٢٢) إر ٢٠ : ٧ — ١١ .

الكلمة بشارة مفرحة

□□□

الكلمة إنجيل، والإنجيل بشارة مفرحة مرسلة للخطاة. خادم الكلمة شافي الجراح ومفرّح القلوب التي كسرتها ذُلّة الخطيئة وهموم العالم. «روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلوب، لأنادي للمسبيين بالعُتق، وللمأسورين بالإطلاق... لأعزّي كل النائحين... لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودهن فرح عوضاً عن النوح ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة، فيُدعون أشجار البر غرس الرب للتمجيد.» (٢٣)

حينما ينتهي طريق الخاطىء بعد أن تدمى قدماه بشوك المسرات الوهمية، وبعد أن يكلّ من رفس المناخس ويقف عند نقطة النهاية في مرحلة اليأس المعتم حيث يبدو الهلاك واضحاً، حينئذ تنفتح الأذن لتسمع كلمة النجاة ومعها أفراح الفداء وتهليل الغفران وبهجة الخلاص؛ وتنجلي الرؤيا عن المسيح المنقذ والمحرر والشافي.

خادم الكلمة يسعف المجهدين واليائسين بكلمة الإنجيل للبشرى فيردّ لهم الحياة مع الرجاء، يقدم للتائبين هذا المسيح الحلو الممسوح من أجل المساكين والبائسين والمنكسرين والحزانى؛ يقدمه كما هو بكلماته الحلوة المبهجة.

يبشر المساكين بانفتاح الملكوت؛ ويعصب منكسري القلوب بيقين الغفران،

---

(٢٣) إش ٦١ : ١ ــ ٣.

و ينـادي للـمـسبيين بالفداء وللمأسورين بالخلاص. ينثر عليهم جمالاً، دهنَ فرحٍ، رداءَ تسبيحٍ، فيصيروا أشجار برٍّ وغرسَ تمجيدٍ في بيت الله.

حينما قرأ السيد المسيح هذا الفصل المبهج من سفر إشعياء قال للسامعين: «اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم.» (٢٤)

خادم الكلمة يحقق هذا الوعد و يتممه كل يوم كقول الرب.

لا يكفّ عن دعوة الخطاة والمترددين إلى وليمة المحبة السرية، و يُلزمهم بالدخول بمقتضى رحمة الله، ينادي بالبشرى و باكتمال زمان الخلاص للذين لفظهم العالم خارج السياجات.

يقود المتعبين والمجهدين واليائسين والذين أشقاهم العالم إلى حضن الآب المريح.



(٢٤) لو ٤ : ٢١.

الكلمة «حجة شرعية» لميراث مواعيد الله

□□□

كـلـمة الله تحمل منذ البدء مواعيد وتشهد على تحقيق مواعيد. الله حقق مواعيد كـثيرة. إذا وضع الخادم أصبعه على المواعيد التي حققها الله ـــ وهي كثيرة ـــ يتولد الإيمـان و يـتـقوى و ينمو، إذ ليس وسيلة لنمو الإيمان إلا بالتأمل في صدق كلمة الله وأمانتها ونفاذها على ممر الزمن.

[الأمور التي تُرى الآن في أنحاء العالم لم تكن موجودة...
كانت كلها قد تُحُدِّث عنها فقط ولم تكن قد وُجدت بعد.
ففي الأزمان الأولى كان قد تُنُبِّىء عنها، والآن أُظهرت وتحققت.
لم يكن المسيح موجوداً على الأرض، ثم وعد، فجاء، وأكمل وعده.
لم تكن عذراء حملت، ثم وعد، وتحقق وعده.
لم يكن قد سُفك الدم الذكي. ثم وعد، وحقق وعده.
لم يكن قد قام الجسد إلى حياة أبدية، ووعد، وحقق وعده.
لم تكن الأمم قد آمنت، ووعد، وحقق وعده.
هـذه الأمـور كـلـهـا وعـد بهـا، وحقق وعده فيها جميعها. فهل في وعده (بالأمور الآتية) و يوم الدينونة يكون قد خدعنا؟
إنه لا بد آتٍ بأي طريقة كما أتت كل هذه الأمور (في زمانها).](٢٥)

القديس أغسطينوس

---

(25) Enerrat. in Ps. 73,25.

وإذا رفع الخادم قلب سامعيه إلى مواعيد الله الآتية، بضمانة وعوده التي تحققت، وضمانة صدق كلمة الله التي هي أثبت من السماء والأرض، قَوِيَ يقين الناس وتشددت ثقتهم ودب فيهم الفرح والعزاء وتغلبوا على الفساد الذي في العالم «قد وهب لنا **المواعيد العظمى والثمينة** لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.» (٢٦)

فرق عظيم بين الأمل والرجاء.

الأمل يتعلق بشيء بشري مشتهى حدوثه، فإذا تخيلناه أكثر من اللازم أو حاولنا أن نعيش فيه، كان هذا هروباً من الواقع ودلالة على مرض النفس ينذر بخطر الإنحلال في الشخصية.

أما الرجاء فهو حدث إلهي موعود به. ولأنه حقيقة إلهية، لذلك لا يستطيع أن يحجزها الزمن، لذلك أمكن أن نراه ونعيشه ونوجد فيه بيقين الإيمان، وهذا بالتالي **يدفعنا إلى سلوك أفضل في الحاضر** وقدرة على مواجهة الصعوبات ومشاكل الجسد والعالم. أي أن الرجاء عامل فعال على زيادة الجهد في النفس وشفائها «أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله ولم يُظهر بعد ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو. **وكل من عنده هذا الرجاء به يطهر نفسه.**» (٢٧)

الإنجيل كله أخبار سارة، نصفها قد تمَّ ونصفها قائم بالوعد، ننتظره بالإيمان ولكن نراه ونعيشه بالرجاء.

خادم الكلمة يعيش مع سامعيه حياة إنجيل كامل، أي يصير معهم شريكاً فيما تم بالإيمان وشريكاً فيما سيتم بالرجاء. خادم الكلمة خادم إيمان ورجاء، خادم

---

(٢٦) ٢بط ١ : ٤.

(٢٧) ١يو ٣ : ٢ و٣.

مواعيد تحققت فعلاً ومواعيد ستتحقق يقيناً.

[الله وعد بذلك وقد نطق به، وإذ لم يكن هذا كافياً (لديه) أكَّد بقسم، و بذلك صار الوعد مؤكداً ليس بسبب استحقاقنا ولكن برحمته، فلا يخشى أحد أن ينادي بذلك، ولا يتشكك البتة. وليت قلوبنا تتشدد بهذا الإلهام، ونكرز بحق الله، كما نطق به في مواعيده بقسم متقوين في كل شيء ممجدين الله.](٢٨)

القديس أغسطينوس

حلول الله بين الناس وتكميله للتجسد والفداء والغفران والمصالحة والتبني، كلها وعود سبق أن أشارت إليها جميع الأسفار المقدسة بكل الوسائل والطرق، وكلها تحققت أمام أعيننا!

مجيء ابن الله في مجده مع قديسيه وملائكته وإعلان ملكوت الله والدخول في الحياة الأبدية وتكميل فداء أجسادنا ورؤيتنا مجد الله وجلوسنا مع الإبن في ملكوته وميراثنا مع القديسين، كلها مواعيد تحملها الكلمة كحقيقة واقعة تنتظر اكتمال الأزمنة لإستعلانها.

[لقد وعد بخلاص أبدي وحياة الطوبى مع الملائكة بلا نهاية، وميراث لا يضمحل ومجد دائم، ومسرة التطلع إليه، ومواضع مقدسة في السموات، وانقضاء الخوف من الموت بالقيامة. هذه كانت آخر مواعيده حيث يتجه الآن كل (رجائنا) وجهدنا نحوها التي إذا بلغناها لا نعود نطلب شيئاً آخر.

لقد وعد أن يهب الطبيعة الإلهية للإنسان و يعطي للمائتين عدم الموت وللخطاة التبرير وللمنبوذين المجد. وكل ما وعد به هو لغير المستحقين حتى إنه لم يَعِدْ بمكافأة

(28) Enerrat. in Ps. 88,5.

للأعمال وإنما أعطى بإسمه نعمة مقابل لا شيء.] (٢٩)

القديس أغسطينوس

الذي يؤمن بكلمة الله ويحبها ويخضع لها خضوع القلب، سيان عنده ما تحقق من الوعد وما سيتحقق، إنه يعيشهما كليهما. فالإنسان الذي استطاع أن يستوعب بالإيمان الحي ما حققه الله من المواعيد، فإنه حتماً يمتد و يدخل بالروح والرؤ يا فيما أعده الله لمختار يه: «ما لم ترَعين ولم تسمعْ أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه، **فأعلنه الله لنا نحن بروحه.**» (٣٠)

و بين ما تحقق من الوعد وما سيتحقق منه لا يقف المسيح كأنه بلا عمل، إنه يُعدُّ المكان و يُعدُّنا للمكان فرداً فرداً، إنه واقف على الباب كل يوم يقدم المعونة ويهيىء القلب، وله معنا وعد مستمر يتم كل صباح، وعد لا يُنْقضُ إلى أن يكمل زمان مجيئه «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (٣١)

الوعد بملكوت الله الآتي دعوة للتسامي بالواقع المؤلم و بالألم نفسه!
حقيقة الملكوت الآتي ردٌّ رؤ يوي لسؤال الإنسان عن معنى عجزه وإخفاقه المستمر وقصوره الروحي.

و بقاء هذه المواعيد العظمى لم تتحقق بعد، هي فرصة ثمينة لدى كل إنسان أن يهيىء نفسه لها، متجاوزاً كل آلام الزمان الحاضر.

وعد الله بالقيامة والحياة الأبدية، ألغى سطوة الموت وفزعه بل ألغى أثره وفعله

(29) Enerrat, in Ps. 109,1,2.

(٣٠) ١كو٢: ٩ و١٠.

(٣١) مت ٢٨: ٢٠.

بل ألغى حقيقته ولاشاه، ولم يعد الموت أكثر من حادثة زمنية كمقابلة عكسية للميلاد يدخل بها الإنسان عالم الوجود الحقيقي.

وعد الله بسماء جديدة وأرض جديدة(٣٢) فسّر لنا معنى هذا التغيير الشديد والسريع الذي يصيب كل شيء، وهذا التقلب المرير الذي يعانيه الإنسان من الطبيعة ومن أخلاق الناس.

مواعيد الله تحمل السر النهائي للحق الذي به سيتحرر الإنسان ويحيا وجوده في الله بلا أي عائق.

إن رجاء السامرية لا يزال يحتل مكانة عظمى في قلب البشرية حيث يعلق الإنسان على المجيء الثاني للمسيح تفسيراً لكل إخفاق عاناه الإنسان سواء داخل التطبيق الحرفي للوصية أو خارجاً عنه: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي **فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء.**»(٣٣)

---

(٣٢) يو ٤ : ٢٥.

(٣٣) رؤ ٢١ : ١.

موقف الخادم من الكلمة ومن السامعين

□□□

[سأطلب الذين ضلوا، سأبحث عن المفقودين،
سأجاهد من أجل ذلك في وقت مناسب وغير مناسب...
سأتبعهم في المآزق والعراقيل حتى ولو انغرست فيَّ الأشواك.
... إذا سكتُّ فلا أكون بعد راعياً،
وحراس الله عليهم لزاماً أن يحذروا].
القديس أغسطينوس (٣٤).

خطر الشعور باحتكار سلطان الكلمة:

ليس لخادم الكلمة سلطان سوى سلطان الكلمة ذاتها الذي يتقوى به و يتشدد إلى أقصى حد، ولكن لا يحتفظ به لنفسه وإنما يسعى بكل جهد أن يكون مِلْكاً لكل سامع «...هل تغار أنت لي؟ يا ليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم» (٣٥). فالكلمة لا تقبل أن تكون مِلْكاً لأحد «كلمة الله لا تُقيَّد» (٣٦). وهي لا تتوقف عن فيضها إذا تخلى عنها أحد «إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ.» (٣٧)

يخطىء الخادم حينما يُشعر السامعين أن لديه قوة خاصة غير قوة الكلمة أو أن

---

(34) Sermo 46, 14, 15.

(٣٥) عد ١١ : ٢٩.

(٣٦) ٢ تي ٢ : ٩.

(٣٧) لو ١٩ : ٤٠.

عـنـده حلاً عملياً خلاف عمل الكلمة. **فكل موهبة الخادم ومؤهلاته تنتهي عند طرح الـكـلـمـة بـقوتها وسلطانها، بيقين الشهادة وبإيمان، أمام سامعيه لتكون ملكاً للجميع.**

ولـيـدرك الخـادم أن هـنـاك مـفارقة شاسعة بين كلمة الإنسان وكلمة الله، ولا رجـاءَ إطلاقاً أن تصير كلمة الإنسان هي نفسها كلمة الله إلا بواسطة الروح القدس الـذي يُـلـبـس كـلـمـة الإنـسان القوة والسلطان والفعالية فتصبح الكلمة مقتدرة في فعلها.

وهـذا الحـلـول الـسـري الـذي يكمله الروح القدس في كلمة الإنسان يحتاج إلى تـفـريـغ كلي مـن جـهـة الخـادم مع إيمان قوي وصلاة. لأن بالإيمان والتوسل يعمل الروح القدس في القلوب الوديعة لمجد الله. وسلطان الإنسان ينشيء دائماً تمرداً، أما سلطان الله فينشيء طاعة كلية وخضوعاً فتبدو الكلمة ذات هيبة كحضرة الله.

خدمة الـكـلـمـة لا تـعني اسـتـخدامها، هذا معنى معكوس وخاطيء، **خدمة الـكـلـمـة تـعني أن نحني ظـهـرنا وعنقنا لها فتستخدمنا هي حسب قصد الذي أرسـلـهـا.** وخـادم الـكـلـمـة لا يسير أمامها ولكنه يتبعها ليس بفكره فقط بل بكل إحـسـاسـه وشـعـوره، هو لا يُقحم فكره الخاص عليها ولكن ينتظر إلى أن تسبق هي وتـقـتـحـم الـفكر والقلب والمشاعر وتقود الكل إلى فكر الله، فينطقها الخادم حسب مسرة الله.

الـكـلمة ليست وسيلة في فمنا نُصلح بها الناس ونقوِّمهم، ولكن الصحيح هو أن **فـمـنـا وحياتنا وسيلة للكلمة** تصلح بواسطتنا قلوب الناس وتقدِّمنا لهم كشهادة على قوتها وصدقها.

عمل الخادم هو الشهادة للكلمة معلناً عن قوتها وقدرتها على الخلق والفداء والتجديد، حتى يقبلها السامع نقية صافية غير ملوثة بمقدرة الخادم وحذاقته، فتصير الكلمة نوراً لحياة السامع وقائداً ومرشداً بحد ذاتها، دون أن يقحم الخادم نفسه على الكلمة كمساعد لها ومؤازر، فيوهم السامع أن الكلمة ضعيفة وتحتاج إلى حذاقته ليكمّل عجزها، فيلتجىء إليه السامع ويترك الكلمة. هذه ليست خدمة الكلمة بل هي إهانة الكلمة.

[حينما يتكلم الخادم عليه أن لا يشك في نجاحه، أما **نجاحه فسيكون بسبب تقواه وصلاته** أكثر مما هو بسبب مواهب الكلام، لذلك وجب على الخادم أن يصلي من أجل نفسه ومن أجل الذين سيكلمهم قبل أن يتراءى أمامهم.]

القديس أغسطينوس (٣٨)

بقدر ما يجرد الخادم نفسه من مجال عمل الكلمة معطياً لها كل الفرصة لمواجهة السامعين ــ فلا يحس السامع إلا بسلطان الكلمة وقوتها إذ ينسحب الخادم في أعماقه وكأنه يتوارى خلف الكلمة أو كأنه يجلس وراء صفوف السامعين ــ حينئذ تباشر الكلمة عملها بلا عائق.

الخادم ليس منقذاً للناس ولكنه شاهد للكلمة:

وقوف الخادم أمام جمهور الناس ليتكلم بكلمة الله يضعه منذ أول لحظة في مركز حرج وخطير، لأن الشعب يخطىء إذ يعتبره **منقذاً**، وهو ينقاد لخطأ الناس فيشعر أنه كذلك أو أن عليه واجباً مثل هذا!

واجب الخادم أن يصحح ظن الناس منذ أول لحظة فيقنعهم بسلطان الكلمة

(38) De Doctrina Christ, IV, 32.

و ينقل رجاءهم باصرار واتضاع ليربطه في وعد الله وأمانته وشدة قوته، و يقدم لهم الروح القدس العامل بالكلمة كجبار يستطيع وحده أن ينقذ ويحل و ينجي من الموت. أما الخادم فيقدم نفسه كضعيف واقع تحت سلطان الكلمة وأسير لها. وهذا يعمله الخادم دون أن يشير إليه بالكلام لئلا ينبه ذهن السامع إلى شخصيته.

خادم الكلمة ليس عارض كلام، ولا مستحدث أفكار، ولا حافظ آيات، خادم الكلمة كاشف لصدق الكلمة وأمانتها، ومعلن عن قوتها وفعاليتها، ومحذر من شدتها وحزمها.

[خادم الكلمة ليس عازف موسيقى في ميدان وضع على نفسه أن يُسر سامعيه بألحانه العذبة، إنه أفضل له أن يعطي سامعيه أقوالاً مُرّة في حينها، تتحول لهم فيما بعد إلى حلاوة في قلوبهم.]

القديس أغسطينوس (٣٩)

فكل همّ الخادم أن يصور الكلمة على حقيقتها كما ذاقها هو وكما عرفها، و يقدمها كما قدم المسيح نفسه للسامعين: **فللمبتدئين** تكون الكلمة حدثاً إلهياً خطيراً قادراً أن يلتحم بحياة الإنسان فيغيرها ويجددها و يشددها، **وللسائرين** كصديق يرشد و يعلّم و يعين، **وللمتقدمين** كعشرة حلوة وحياة مع الله.

خادم الكلمة إنسان يعيش في الكلمة وللكلمة. عمله لا أن يجعل السامعين يتلذذون بمعاني جديدة للكلمات ولا أن يتثقفوا بمعارف عالية؛ ولكن أن يأخذوا شيئاً حياً لحياتهم وقوة أعلى من قوتهم تحررهم من الإرتباطات الوهمية التي تمنع تحركهم نحو الله.

---

(39) Sermo 9,5.

السامع يأتي ليسمع الكلمة لعله يتعرف على باب جديد مفتوح ينفذ منه إلى الله، وليس لكي يتعرف على حذاقة المتكلم وتقواه؛ لذلك يلزم أن يكون الخادم لابساً المسيح ومختفياً فيه حتى لا يرى السامع منه شيئاً قط.

الخادم الذي يعرض ظُرْفه ولُطفه أو حذاقته وتقواه أو هيبته ووقاره أو تواضعه ووداعته، يصرف السامعين فارغين و يعود هو صفر اليدين.

ليضعْ الخادم نصب عينيه أن غاية خدمة الكلمة هي أن يعود السامع وقلبه ملتهب بالكلمة، وفكره مشغول بسلطانها، ونفسه متعزية، وإيمانه متحصن، وإرادته مشدودة برجاء جديد، ولسانه يترنم بمجد الله.

[إذا صمتُّ ومنعتُ في عن الكلام تصير روحي في خطر.

ولكن ماذا أشتهي بل ماذا أطلب بل ماذا أتكلم، ولماذا أنا هنا ولماذا أعيش إلا لنحيا معاً في المسيح!

هذه شهوتي وكرامتي ومجدي وسروري وكنزي الثمين.

ولكن إذا لم تصغوا لي فلن أسكت رجاء تخليص نفسي، ولكني لا أسأل قط أن أخلص بدونكم.]

القديس أغسطينوس (٤٠)

خطر استعارة كلمة الله لتأليه الذات:

القلب «المنكسر والمنسحق» (٤١) عرش مريح لكلمة الله، وهيكل مختار لسُكنى الروح القدس. والشيء المنكسر والمنسحق يعني أنه غير مرتفع ولا شامخ بل غير منظور ولا موجود.

(40) Sermo 17, 2.

(٤١) مز ٥١ : ١٧.

طبيعة الإنسان أصلاً كانت وديعة متضعة، ولكن بالبعد عن الله نما فيها برج عظمة أراد أن يحققه الإنسان في بابل على الطبيعة حتى يخلّد نفسه واسمه. (٤٢)

هذا البرج هو في الواقع نتوء مرضي ليس من أصل الطبيعة، كالنمو السرطاني الذي يأخذ عصارة الحياة و يبددها و ينذر بالموت، وفي هذا البرج أو النتوء تتحصن الذات وتختفي حيث تتغذى على الكبرياء والمديح فينمو البرج.

الذات المنحرفة تزيف كل صفات الله لنفسها، فهي إله كاذب داخل الإنسان. وهي مراوغة ومحتالة، تحول كل شيء لمجدها وتشتهي أن يخضع لها الجميع و يقدموا لها المديح والشكر، فهي تجلس عوض الله على عرش النفس.

«الذات» تستطيع أن تحوّل أقدس الأشياء لمنفعتها ولعبادتها الخاصة، فهي تحول الصوم والصلاة والصدقة والتسبيح والتواضع وأعمال المحبة والبذل والخدمة والوعظ لحسابها الخاص لتزداد كرامة وشهرة وتزداد ثباتاً ورسوخاً في عين صاحبها.

لا قيام للإنسان ولا راحة لكلمة الله فيه إذا لم يهدم هذا البرج و يستأصل هذا السرطان و يُخرج الذات من معقلها السري ويجعلها واضحة مكشوفة صريحة و يقص كل نتوء كاذب ينمو فيها ناحية العظمة والكبرياء.

ولن يطمئن الإنسان أن الذات انكسرت وانسحقت إلا إذا أحس في نفسه أنه ليس شيئاً وأنه لا يريد أن يكون شيئاً وغير مرتبط بشيء.

الكلمة إذا استقرت في قلب منكسر ومنسحق أثمرت حياة. أما إذا أصابت قلباً تجلس على عرشه الذات المتألهة فإن كلمة الله تتحول إلى كلمة الناس.

(٤٢) تك ١١ : ١ — ٩.

مرض الأسئلة الكثيرة:

همُّ الناس الطاغي هو أن يسألوا أسئلة.

لأن ضغط الحياة حولهم والتزاماتهم المادية حصرتهم في شبكة العالم وأخضعتهم، دون أن يدروا، تحت حتميات وهمية وفروض و واجبات وأصول وعرف وتقليد، كلها تتعارض مع نداءات الحياة الأبدية «بع كل ما لك... وتعال اتبعني» (٤٣). هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مواجهتهم لكلمة الله وهم على غير يقين منها أو تقدير كاف لسلطانها، جعلهم في مستوى دونها بكثير، وهذا بحد ذاته كافٍ ليكون علة مناقَضَةٍ لا تنتهي.

الناس يتوهمون أن خادم الكلمة يحمل في جعبته جواباً لكل سؤال. والخادم يلتبس عليه الأمر و يقع تحت وهمهم فيظن أن عليه أن يجيب، وأن يحمل في جعبته جواباً على كل سؤال.

المسيح حينما كان يسأله الناس أو الأعداء أو حتى التلاميذ، كان يرد على السؤال بسؤال كنوع من استنكار السؤال وعدم أهميته: «من أقامني عليكما قاضياً؟» (٤٤)، «وأنا أيضاً أسألكم... معمودية يوحنا من أين كانت من السماء أم من الناس؟» (٤٥)، «ما هو مكتوب في الناموس، كيف تقرأ؟» (٤٦)، «لمن الصورة والكتابة؟» (٤٧)، وهكذا كان سؤاله أيضاً لا يخلو من تأنيب وتوبيخ وتحذير.

---

(٤٣) مر ١٠ : ٢١.

(٤٤) لو ١٢ : ١٤.

(٤٥) لو ٢٠ : ٣ و٤.

(٤٦) لو ١٠ : ٢٦.

(٤٧) لو ٢٠ : ٢٤.

الإنسان يسأل حينما يفقد الطريق الإيجابي محاولاً أن يتعامى عن الحقيقة، أو حينما يتسرع في لهفة ليعرف ماذا في الأفق البعيد، أو حينما يريد أن يخفي عجزه وينفي خطأه، أو حينما يريد أن يعثر أخاه أو يورطه كما تفعل الحية.

عمل خادم الكلمة لا أن يدخل في أسئلة ولكن أن يدخل في الحقيقة. والحقيقة واحدة وبسيطة وهي كفيلة أن تشرح كل سؤال، ولكن ألف جواب على ألف سؤال ليس كافياً لشرح الحقيقة.

والحقيقة التي ينبغي أن يحملها الخادم في جعبته ليرد بها على كل سؤال أو بالحري ليُسكت بها كثرة الأسئلة هي: **أن يسلم الإنسان حياته كلها لله ويلتصق بالكلمة**، وحينئذ سيدرك الجواب عن كل شيء. كلمة الله صانعة عجائب «إن ثبتُّم فيَّ وثبت كلامي فيكم **تطلبون ما تريدون فيكون لكم**.» (٤٨)

حينما يقدم الخادم كلمة الله كحل لكل مشكلة وكملجأ نلوذ به في الضيقة، وكنور نسترشد به في الطريق، وكغاية عظمى ننتهي إليها، فهو لا يقدمها بتراخي كأن الإنسان حرٌّ يختارها أو لا يختارها، بل يقدمها كضرورة والتزام، إذ ليس اختيار بين الموت والحياة.

الخادم يعيش حياة سامعيه:

الكلمة بطبيعتها غير منحصرة وهي لا تقيَّد، هي حضرة إلهية يجتمع فيها كل قلب وكل فكر في كل زمان ومكان تحت كل الظروف. يلزم خادم الكلمة أن يعيش في طبيعتها المتسعة الرحبة، فيدخل معها إلى كل قلب وإلى كل فكر مهما

---

(٤٨) يو١٥: ٧.

كانت حالة الإنسان وظروفه وزمانه ومكانه، يلزم الخادم أن يحس حالة كل نفس وحالة الزمان الذي يعيش فيه والظروف المحيطة.

خادم الكلمة يدخل بإرادته في تيار الفكر المعاصر و يتحرك فيه بحر يته ليتواجه مع الناس على صعيد الحقيقة والواقع الذي يعيشونه متسلّحاً بكلمة الله الفعالة التي تستطيع أن تحفظه هو أولاً من الإنقياد لتيار الناس، كما تؤهله بالقوة الكافية أن يرفع الناس من التيار.

كلمة الله لها مع الناس مواجهة ثابتة أبدية فوق الحوادث وفوق الأزمان، كما لها أيضاً معهم مواجهة يومية في صميم الواقع الذي يعيشونه. ورسالتها كل يوم تكوّن خطة متكاملة مع رسالتها الأبدية «خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا» (٤٩). وكلمة الله تعمل بجدة لا تنتهي «لأن مراحمه لا تزول. هي جديدة في كل صباح.» (٥٠)

خادم الكلمة عليه أن يلاحق هذه الجدة اليومية، عليه أن «يغير شكله كل يوم بتجديد ذهنه» (٥١)، حتى يقبل الكلمة في جدتها وقوتها الصالحة لمواجهة كل ما يطرأ على الإنسان في كدّه اليومي ومصادمته مع الفكر السائد و بدع الزمان.

خادم الكلمة يتراءى كل يوم أمام الناس ومعه بشارة جديدة وشيء هام نافع لحياتهم، يتلهف لكي يوصله إلى قلوب السامعين أكثر مما يتلهفون هم على سماعه، لأنه يعرف حاجتهم قبل أن يسألوها ويحتفظ دائماً بجواب أعمق بما لا يُقاس مما أعدوه في قلوبهم من أسئلة.

---

(٤٩) رو ١٣ : ١١.

(٥٠) مراثي ٣ : ٢٢ و٢٣.

(٥١) راجع رو ١٢ : ٢.

خادم الكلمة يعيش ضرورة يومه مع الناس و يئن بعوزهم و يفكر بفكرهم و يدخل في مصادمات العصر كسابق من أجلهم.

ووعي الخادم لرسالته ولقيمة الكلمة ونفعها وسلطانها هو الذي يفتح وعيه لمقتضيات وظروف الناس. وإحساس الخادم بظروف السامعين وضيقة الزمان الذي يقاسونه يعطي فرصة للكلمة أن تقع في تربة مهيأة لنمو الكلمة وإثمارها، كما يعطي فرصة لدخول الله في ظروف الإنسان، و يرفع مأساة الزمان في نظر الناس إلى مستوى الكفاح حباً في الله وترجّياً للملكوت الآتي.

الرجوع إلى سلطان الكلمة والتمسك بها حلٌّ لكل مشاكل العالم:

العالم اليوم تغمره تيارات يائسة تنبعث من أعظم أركانه مدنيةً وعلماً، حيث تكتلت عقول جبارة عالمة متأصلة في كل علم ومنطق وفلسفة، تعمل بكل ثقلها وكفاءتها لهدم إيمان الناس وتشكيكهم في كل تراث روحي وديني: فالوجودية والماركسية والعقلانية والنفعية المادية والنقدية الدينية وعلم الغيبيات، موضات ذهنية تكتسح أمماً وشعوباً وتفرض سلطانها على عقول الشباب المثقف فتسد عليه الطريق إلى الله. إن سمة هذا العصر الذي نعيش فيه هو «الجزع» بالنسبة للقلوب المؤمنة بالله، و«الاستهتار» بالنسبة للذين لا قلوب لهم.

خادم الكلمة لا يرتاع «لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة» (٥٢)؛ عليه أن يتسلح بقوة الله «القادرة بالله على هدم حصون. هادمين ظنوناً وكل علو يرتفع ضد معرفة الله ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح.» (٥٣)

---

(٥٢) ٢ تس ٢ : ٢.

(٥٣) ٢ كو ١٠ : ٤ و٥.

خادم الكلمة لا يأخذ بالنهايات ولا يعالج السطحيات، عليه أن يتعمق مشكلة العصر، فالعلاج ليس في أن يواجه جزع المؤمنين ولا بمقاومة المستهترين، ولكن العلة تكمن في ضعف الإيمان ثم انهياره كنتيجة حتمية لعدم ممارسة الحياة الروحية والتعرف على قيمة الروح في الإنسان وثقلها الذي يستطيع أن يوازن العالم كله بكل جزعه واستهتاره وشياطينه.

إن البدع العقلية وسلطانها الطاغي على الإنسان قائمة منذ زمان بعيد. ولكنها لم تمسك بتلابيب الإنسان وترديه إلى مهاوي الهلاك والاستهتار إلا في هذا العصر بسبب تراخي الكنيسة وانعدام الخدمة الحارة الصحيحة لكلمة الله.

العالم تزحزح عن خضوعه وولائه لكلمة الله، لأنه لا يوجد مَنْ يعيشها، فتخلخل الإيمان بالله في قلوب الناس. **الدعوة يلزم أن تنصب على الرجوع لسلطان الكلمة والخضوع المطلق لها والتمسك بمواعيدها.**

الإيمان بالكلمة يفتح المجال لفعلها، والخضوع لفعلها يحقق كل مواعيدها. مواعيد الكلمة صادقة: فداء وتجديد وخلاص وسلام يفوق «**العقل**» و يتحدى كل زعازع هذا الدهر.

الإيمان المطلق بعمل الكلمة واقتدارها:

للكلمة عمل سري في قلوب الناس لا ندركه إطلاقاً، هو فوق تقدير الخادم مهما كان حاذقاً أو حتى نبياً، لأنه فائق على طبيعة العقل البشري وقوته، كما يقول الرب: «لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الرب. لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم.» (٥٤)

---

(٥٤) إش ٥٥ : ٨ و٩.

عمل الكلمة فوق تقدير الإنسان لأنه عمل الروح، والروح يهبُّ حيث يشاء، ولا يعلم أحد من أين يأتي ولا إلى أين يذهب(٥٥).

فالخادم الذي يوجه كلماته لتصيب هدفاً معيناً يخسر فعل الروح. كل ما في مقدور الخادم بل كل ما عليه هو أن يقول الكلمة بإيمان وإخلاص و يترك للروح أن يعمل عمله و يسير مساره و يصيب هدفه دون أن يلاحقه الخادم بمهارته الفاشلة، فيسد عليه المنافذ ويمنعه من أن يباشر فعله السري.

الخادم غير المفرز يظن أنه يستطيع بحذقه ومهارته أن يحرك قلوب الناس و يستحدث تأثيراً للكلمة بوسائله الخاصة، تارة بانفعاله واصطناع الشدة، وتارة بهدوئه وتوسله واصطناع المسكنة، وتارة بإدخال الأمثلة والحكايات المثيرة، هذه كلها طرق عالمية وتحايل نفساني. وهذه الطرق كفيلة أن تشغل ذهن السامع وتلهي مشاعره عن رزانة الكلمة وسلطانها السري الذي يحتاج إلى مواجهة مباشرة لقلب السامع حتى يباشر عمله.

خدمة الكلمة خدمة سمائية لا تحتاج إلى تحايل بشري من أي نوع. خادم الكلمة هو مرسَلٌ خلف الكلمة وليس هو مسئولاً عن مسارها. هو إناء ضعيف يحمل قوة الكلمة الفعالة، وليس هو قوة فعالة تحمل كلمة ضعيفة!

الخادم المفرَز بالروح لإنجيل الله يتوارى خلف الكلمة لأنه يدرك قوتها واقتدارها، و يقولها ببساطة متناهية وإيمان وهو واثق من فعلها، فإذا تكلم تحس أنك تسمع الكلمة ولا تسمعه هو، وكأن الكلمة تنطق نفسها، فتأتيك كقوة منطلقة من مصدر سري بكامل دفعها وقوتها وسلطانها، غير محتجزة في الطريق أو معوّقة

---

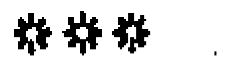
(٥٥) يو ٣ : ٨.

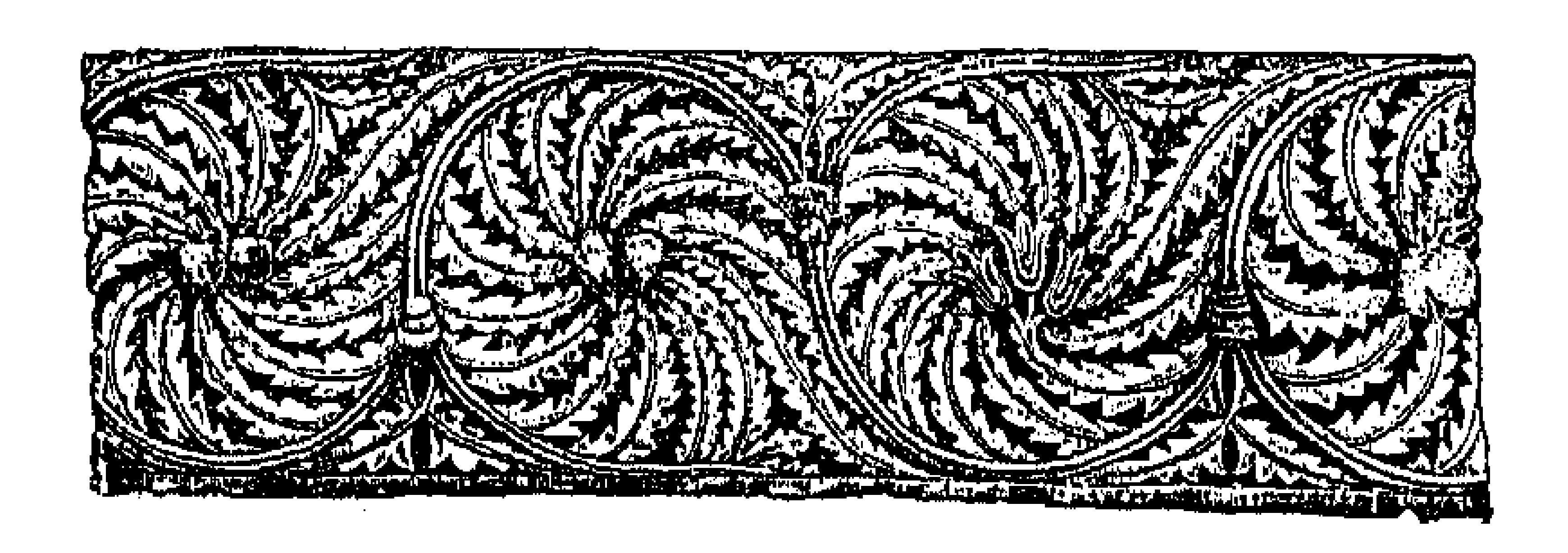
بشيء أو مخلوطة بمزاج المتكلم.

خدمة الكلمة في القرن العشرين دخلتها عناصر علمية ومادية تهدف عبثاً إلى كشف قوة الكلمة وسرها بالتحايل العقلي، تارة باستخدام وسائل الإيضاح والفانوس السحري والسينما، وتارة بتحويل خدمة الكلمة إلى جلسة إجتماعية لطيفة يتخللها الشاي والموسيق وأنواع المسليات والسمر كنوع من التحايل النفسي، كأن الكلمة ثقيلة ومُرة تحتاج إلى تغيير طعمها ورائحتها كالدواء الكريه!

وبذلك انحصرت الكلمة تحت هذه الأغلفة التي سدت عليها المنافذ وأضاعت سلطانها وحجزتها عن مواجهة قلوب السامعين فأبطلت مفعولها بتأثير هذا الجوغير الرزين. وكل ذلك منشأه توهُّم الخادم أنه بعد توصيل الكلمة إلى آذان الناس، يظل مسئولاً أيضاً عن تأثيرها في قلوب الناس، هذا وَهْم خاطيء. الكلمة بحد ذاتها فاعلة، وفعلها سري لا يمكن إدراكه، وبالتالي لا يمكن إستزادته من طرفنا.

كل ما على الخادم إذن هو أن يؤمن بعمل الله فيترك له مكاناً ولا يسد عليه المنافذ بوسائله المصطنعة.





الباب الثالث

الحياة بالكلمة

«لي الحياة هي المسيح.»
الرسول بولس (في ١: ٢١)

الحياة المسيحية

□□□

الحياة المسيحية هي **علاقة حية مع الثالوث القدوس**، يظهر فيها عمل الله أكثر مما يظهر فيها عملنا. هذه العلاقة تقودها كلمة الله بسلطانها الإلهي الذي ينمو فعله فينا كل يوم بمقدار طاعتنا له.

والحياة تكون مسيحية بقدر ما يكون المسيح قد عمل فيها من فداء وغفران وخلاص؛ وبقدر ما يعمل فيها كل يوم من ثقة وتوبة وتجديد؛ وبقدر ما يكون فيها من رجاء بالحياة الأبدية وانتظار للملكوت الآتي حسب وعد المسيح.

الحياة المسيحية ليست مجرد حياة إنسان يؤمن بالمسيح، وإنما هي **المسيح حياً في الإنسان**، وذلك باستعلان عمل المسيح وصفاته وفكره وكلمته في حياة الإنسان وأخلاقه وسلوكه، بحيث يصير الإنسان مستتراً شيئاً فشيئاً ليظهر المسيح، وبالنهاية تصير «حياتنا مستترة مع المسيح في الله» (١)، أي يلزم أن الله يبتدىء منذ الآن أن يكون الكل في الكل.

العامل الذي يعمل على اختفاء العنصر البشري وظهور المسيح فينا هو **الروح القدس**، فالروح القدس يطبع كل أعمالنا وأفكارنا وتدبيرنا بطابع المسيح، فيظهر المسيح عاملاً فينا إن بالإرادة أو العمل «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (٢). ولكن المسيح لا يحيا فينا ولا يعمل لنفسه فقط، وإنما يصير فينا أيضاً

(١) كو ٣ : ٣ .

(٢) في ٢ : ١٣ .

وسيطاً يربطنا بالآب لأنه لا يمكن أن توجد حياة خارجة عن الآب «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد.» (٣)

وبذلك يتضح أن الحياة المسيحية تقوم على أساس عمل مستمر للثالوث الأقدس، حيث تنحاز الحياة البشرية شيئاً فشيئاً إلى الله. وبقدر ما يتلاشى من حياة الإنسان العنصر البشري بآماله الأرضية وارتباطاته بالدم واللحم وتحرُّره من أوهام وضرورات وحتميات وتحديدات العالم، بقدر ما يُستعلن فيها العنصر الإلهي بحريته الروحية غير المحدودة مع فضائل إلهية وقداسة.

الحياة المسيحية لا تبدأ من الخارج، والفضائل ليست صفات تضاف إليها. الحياة المسيحية كبذرة، تبدأ من العمق غير منظورة وتنمو من الداخل بعيداً عن أعين الناس واقتراحاتهم. وفضائلها هي آخر ما يظهر منها كنتيجة نهائية لعملية نمو بلغت أقصاها.

بداية الحياة المسيحية معاناة ومأساة، تتصارع فيها قوى مع قوى، وميول مع ميول، وأهداف مع أهداف. كل ذلك في أعماق الإنسان بعيداً جداً عن ملاحظات الناس.

وهذا شبيه بصراع الحياة والموت عند البذرة في باطن الأرض في ظلمة وسكون، أو هو كصراع الله مع يعقوب، أي صراع الإلهي مع البشري في ظلمة ولحظة خالدة، حيث ينتهي الصراع بتحطيم كبرياء الإنسان وسيادة رحمة الله فيتخلص الإنسان من نفسه و يلج دائرة الخلود

إذا أكمل الإنسان مطالب هذه البداية وخرج عن نفسه وانحاز للآخر الأبدي،

(٣) يو ١٧ : ٢٣.

ودخل النور الحقيقي وتنسم رائحة الحياة الأبدية، يبتدىء ينمو في الداخل ويحيا لله.

ونمو الحياة المسيحية الداخلي ليس هيناً، فهو جهاد ومشقة وصراع مستمر ضد عوامل الفساد وقوى معاكسة محيطة بكل جانب، يحتاج إلى يقظة وعمل لتأمين الإتصال المستمر بمنابع الحياة. وهذا يماثله جهاد الجهاز الجذري في النبات وتَصَارُعه مع التربة ليؤمّن وصوله إلى منابع الماء.

والإنسان لا يستطيع أن يصطنع النمو الروحي. فالنمو عموماً قوة ليست في يد الإنسان، إنها سر من أسرار الحياة سواء في الجسد أو في الروح. الإنسان يستطيع فقط أن يستجيب لها ويخضع لشروطها ومطالبها و يستسلم لعملها ويجاهد معها بمقتضى توجيهها. فالنمو الروحي بالرغم من كونه موجوداً في كل إنسان و يسكن فيه (كما تسكن قوة الحياة والنمو في البذرة والجذر والساق)، إلا أنه يعمل بتوجيه الله وإرشاده وضبطه حسب قصده، خسب خطة دقيقة ومشيئة مختارة محددة.

فالإنسان لا يستطيع أن يوجه نموه الروحي كيفما شاء، ولكنه حينما يستسلم لله ينمو أعظم وأكثر وأفضل مما يشاء

نمو الحياة المسيحية هو استمرار لبدايتها، أي استمرار لوقوع حبة الحنطة وموتها، أي استمرار للصراع مع الموت وعوامل الفساد المحيطة. فالنمو الروحي يمثل الوجه غير المنظور في حياة الإنسان، فهو عمل الأعماق بجهد ومعاناة غير منظورين، لا يراهما أحد إلا الله، و ينبغي ألا يراهما أحد إلا الله، وإلا يصيران وجهاً منظوراً للحياة حيث يستحيل النمو الروحي. وهذا يماثله تماماً تعرية جذر النبات!

وفي النمو الروحي يبدو الإنسان كأنه هو العامل والمجاهد النشيط، مع أن الله هو الذي يمد الإنسان سراً بكل الطاقة اللازمة للعمل والجهاد والنشاط بحيث إذا كف

الله عن إمداد الإنسان بالسر توقف العمل مباشرة، وتوقف النمو، وتعرضت الحياة الروحية للفساد بقسوة و بغير رحمة. وهذا يماثله قدرة التربة على مهاجمة الجذر وامتصاصه وتآكله بمجرد أن تتوقف فيه تيارات الحياة!..

عمل الأعماق والجهد والمعاناة، هذه العمليات الداخلية غير المنظورة تدفع الحياة المسيحية للنمو حيث ينشأ حتماً علامات وظواهر في الحياة الخارجية تبدو واضحة غاية الوضوح في الأخلاق والسلوك وطريقة التفكير والتدبير.

إذن تغيير الأخلاق والسلوك والتفكير والتدبير والعادات لا يكون بمحاولات خارجية لإحلال طريقة بدل طريقة، أو إبدال عمل بعمل، أو كبت رغبة والتمرن على رغبة أخرى. هذا ممكن أن يحدث ولكن لا يمكن أن يدوم.

تغيير الأخلاق والسلوك والفكر هو أصلاً عملية نمو داخلي تنشأ في الأعماق نتيجة صراع رهيب بين الموت والحياة، هي تغيير ينشأ عن موت حقيقي عن أخلاق وسلوك وأفكار، وحياة لشيء آخر تماماً. هي ليست تغيير شكل أو طريقة أو أسلوب، ولكن تغيير قلب وتغيير آمال وتغيير حياة برمتها.

و بقدر ما يتعمق الجذر و يصارع في باطن الأرض مع الموت والظلام بعيداً عن أنظار الناس جميعاً، بقدر ما تنبثق الشجرة وتظهر صفاتها ثابتة أكيدة نابعة من الأعماق!...

أما الفضائل فهي علامة نضج. فحينما يكتمل نمو الشجرة تزهر وتثمر؛ فإذا أزهرت قبل اكتمال نموها كان زهرها ضعيفاً وثمرها مُرًّا لا يؤكل.

الثمرة الجيدة برهان أكيد لجودة النمو، وإشارة خفية لهول الصراع الداخلي مع العوامل المضادة والنشاط والدأب المستمر للإتصال بمنابع الحياة «وشجر ذا ثمر

يعمل ثمراً كجنسه» (٤)، لأن كل شجرة كما أعطاها الله تثمر، وصفات الثمرة كائنة في البذرة!

الإنسان، فضائله يعرفها الله لأنه هو الذي يغرسها. وكما يراها الروح القدس، يصوِّرها لقلب الإنسان و يلهمها لروحه و يلح عليه حتى يقتنع، فيقبلها ويميل إليها، و يؤازره الروح خفياً حتى تنضج وتصير شهية لعين الله «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير.» (٥)

الحياة المسيحية وحدة متآزرة في بدئها ونموها وأثمارها. هي أصلاً بذرة انتثرت من **شجرة الحياة** ووقعت في تربة جيدة، أي **كلمة الله** اندفنت في قلب إنسان مخلص، فنمت سراً وأخيراً أخرجت ثمراً **كجنسها!**

الحياة المسيحية مقابلة حرة ومسير مع الله على صعيد كلمته وفي مجالها. والمقابلة من جهة الله سهلة ومحبوبة لديه، حتى أنه اختار لنفسه اسماً يشمل إمكانية المقابلة ودوامها: «عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.» (٦)

ولكن المقابلة مع الله من جهة الإنسان أمر صعب في حقيقته، وشاق، ويحتاج إلى أن يعبىء الإنسان كل طاقاته ويحزم أمره، و بشيء من المجازفة يخرج عن نفسه كإنسان قرر أن يرحل نهائياً عن وطنه. ولولا تنازل الله واستعداده للمقابلة، ومبادرته بالإلتقاء معنا، واقتحامه دائرة ضعفنا التي حبسنا فيها أنفسنا حتى فقدنا كل حركة إيجابية نحوه، لاستحالت المقابلة استحالة مطلقة.

كلمة الله هي أول نقطة تلاقي، وموضع هادىء مناسب جداً للمقابلة، حيث

---

(٤) تك ١ : ١١.

(٥) يو ١٥ : ٨.

(٦) إش ٧ : ١١ ومت ١ : ٢٣.

يتقابل فيها الإلهي مع البشري بدون أي انزعاج. لأن النعمة تسيطر على الموقف وتهيىء ظروف المقابلة وترحب بالجانب الضعيف.

نعمة الله تسكن الكلمة وتحفظ مداخلها، وتقود المسكين والمنسحق والمرتعد إلى المتكأ الأول فيها «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال» (٧). النعمة تسبق فتستقبلنا وتفتح ذهننا وقلبنا، وتنير بصيرتنا إلى أن ندرك الله ونتقابل بالمشيئة معه!! لا يمكن اقتحام كلمة الله، كلمة الله يحوطها السر كالله، الإيمان وحده يفك ختومها. ولكن يظل الله شيئاً والإنسان شيئاً آخراً، فالكلمة في طبيعتها الإلهية سيف ذو حدين أينما حل يفرّق، فالكلمة تضعنا في مواجهة الله ثم تطرحنا بعيداً عنه!

الكلمة تمعن في التفريق بين الإنسان والله كلما تعمق الإنسان في سرها! لأنها كالنور يكشف الفرق الشاسع بين حياة الله وحياة الإنسان. الكلمة عندما يواجهها الإنسان بوعي وتفهُّم يرتاع لا محالة، لأنها توقفه بعيداً جداً عن الله حيث يبدو الله الخالق كآخر غريب عن الإنسان كل الغربة. الإنسان الأمين المخلص حينما ينفتح للكلمة يئن ويصرخ لأنه يرى واقع حياته يختلف اختلافاً شاسعاً عن مطلب الكلمة! «كونوا قديسين لأني أنا قدوس» (٨)، «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (٩): نموذج لكلمة الله التي تبدو كسيف ذي حدين يخترق أعماق النفس، ويكشف ويوبخ ويعلن للإنسان حقيقة نفسه، وحينئذ يطرحه بعيداً عن الله! مع أن الكلمة في حقيقتها تطلب مجيء الإنسان واقترابه إلى الله وتتودد إليه.

---

(٧) مت ١١ : ٢٥.

(٨) ١ بط ١ : ١٦.

(٩) مت ٥ : ٤٨.

إذن لا مفر، لابد من المسيح لكي يأتي ويحل مشكلة الكلمة، أي يلغي الفُرقة الطبيعية بين الخالق والمخلوق، بين القداسة الكلية والضعف الكلي، و يقف كوسيط يربط المتناهي باللامتناهي في نفسه، و يوحد بين الطبيعتين ليقيم عجز الإنسان، و يفتح له مجال الوجود مع الله.

الكلمة في العهد الجديد بدون المسيح أشد صعوبة وثقلاً واستحالة من ناموس موسى. لأن «لا تقتل» (١٠) أهون من «لا تغضب» (١١)؛ و«لا تزن» (١٢) أهون من «كونوا قديسين» (١٣)!!

وليست الصعوبة كائنة فقط في ضعف الإنسان وإنما في استحالة قبول الطبيعة البشرية ما هو أصلاً للطبيعة الروحية أو الإلهية!! فالإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه لا يستطيع!!

هنا نرى بوضوح أن مواجهة الله على صعيد الكلمة بدون أن يعمل فينا الروح القدس لميلاد آخر جديد روحاني، حتى نقبل ما لروح الله، أمر مستحيل. «فالمولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (١٤). فالروح القدس يعدنا للوجود والمقابلة والحياة مع الله وقبول كلمته، بالغسل والتطهير والتقديس الداخلي، كفعل إيمان وتوسل وخضوع لعمل السر. «لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح إلهنا» (١٥).

الحياة المسيحية إذن هي حياة مع الله؛ بمقتضى كلمته وفي نورها بحضور المسيح وإلا تستحيل المقابلة أصلاً؛ وبفعل الروح القدس وإلا يعجز الإنسان عن تحقيق مطلب الكلمة.

---

(١٠) خر ٢٠ : ١٣.
(١١) راجع متى ٥ : ٢٢.
(١٢) خر ٢٠ : ١٤.
(١٣) ١ بط ١ : ١٦.
(١٤) يو ٣ : ٦.
(١٥) ١ كو ٦ : ١١.

الدخول إلى الكلمة

□□□

كلمة الله حضرة إلهية، نار مشتعلة في علّيقة. الإنسان يميل إليها في البدء كأنه يرى منظراً خارجاً عنه، ولكنه سرعان ما يتأكد خطورة الموقف ورهبته؛ وأن الكلمة تتحدث إليه وتشير نحوه؛ وأن المقابلة لم تكن صدفة ساقتها الظروف؛ ولكنها كانت معه على ميعاد سبق أن رتبته العناية الإلهية وسخّرت له السنين والظروف.

كلمة الله يمكن أن نقرأها بسهولة، ويمكن أن نفهمها بشيء بسيط من التفكير، ولكن يستحيل أن ندخل إليها ونستمع إلى إعلانها الشخصي لنا إلا بشروط دقيقة.

أول هذه الشروط هو تقديرنا لهيبة الكلمة تقديراً كلياً من الفكر والقلب والحواس، وعلامة ذلك أن مجرد قراءة الكلمة أو سماعها يُحدث في الحال انتباهاً عميقاً وتوقفاً سريعاً عن كل عمل أو تفكير أو اهتمام آخر مهما كان نوعه! فتكون قراءة الكلمة أو سماعها حدثاً هاماً وخطيراً يستجيب له الإنسان استجابة كفيلة أن تطغى على كل ما عداه من الحوادث الأخرى.

والكلمة هي، في الواقع، حدثٌ إلهي فائق ذو طبيعة تختلف عن حوادث الإنسان الأخرى، لأن حوادث الإنسان هي من الأرض وإلى الأرض بأفخر ما فيها. أما الكلمة فهي من الله وللحياة الأبدية، وهي تفوق السماء والأرض، لذلك فبقدر تفوّقها الطبيعي وسموها يلزم أن تسود.

ولكن الأمر لا يحتاج إلى مجرد اقتناع مزيّف بعظمة الكلمة وسلطانها، بثرثرة

اللسان الذي يسهل عليه أن يعظم كل شيء ولا مانع أيضاً أن يحقِّره سريعاً، فمثل هذه الحركات تقوم بها النفس الخادعة لتعظِّم ذاتها وليس لتعظِّم الكلمة، لأنها إذ تخلع العظمة على غيرها تصير هي في مستوى أعلى منها. ولكن الأمر يحتاج إلى خضوع وتسليم القلب في الداخل في صمت وفي هيبة وانسحاق، بحيث تكون الكلمة صاحبة سلطان وتوجيه فعلي، **فإعطاؤنا الهيبة للكلمة لا يكون باللسان ولكن بتسليم الحياة والعمل.**

ومن العيوب الخطيرة في جيلنا الحاضر عدم إعطاء الكلمة ما يليق بها من هيبة وتكريم حتى صارت تُستخدم للتسلية والمزاح، وتستخدم في مواضع رخيصة ليست لها.

لقد ضاعت هيبة الكلمة كحضرة إلهية، وفقد الناس إحساسهم بسلطانها، فضعف نورها في القلوب، وتوقفت عن قيادتها وإعطاء سرها للناس. فلم يتبقَّ من الكلمة إلا مادة للدرس، أو فرصة للمماحكات الفكرية والمذهبية.

كذلك، من شروط الدخول إلى الكلمة الإيمان بقوتها وفاعليتها، فكلمة الله في الحقيقة كما رأيناها وسمعناها منذ الدهر مقتدرة في فعلها بصورة فائقة، فهي خالقة ومقيمة من الموت ومجددة للحياة ومحررة وغافرة للذنوب وغاسلة من الخطايا ومقدِّسة ومبرِّرة. وثبت أن فِعْلَها يتغلغل في كل الكيان البشري في عقله وقلبه وعاطفته وجسده كفعل روحي خلاَّق لا يزول.

ولكن مجرد الإيمان بقوة الكلمة وفاعليتها لا يدخلنا في قوتها وفاعليتها. فالذي يؤمن بتأثير الشمس وفاعليتها لا يُدخله هذا الإيمان في تأثيرها وفاعليتها، ولكن يلزم مع الإيمان الصادق حركة وانتقال وجهد واشتياق مع ثقة.

الأمر يحتاج إلى قدرة باطنية لفتح كل كيان العقل والقلب لقوة الكلمة وتأثيرها بإيمان وتسليم، حتى يتغلغل فعل الكلمة في الإنسان.

والكلمة لا تؤثر فينا تأثيراً مبهماً، كأن توقف أتعابنا أو تصحح أخطاءنا من تلقاء ذاتها. ولكن الكلمة تتخذ خطوات عملية للتأثير في فكر الإنسان وفي ضميره، وتوجه شعوره وإحساسه، وتعلن له حقيقة كانت مجهولة أو كانت مهملة، أو كانت معاندة، وحينئذ ينتبه الإنسان انتباهة عميقة تنقله من مستوى إلى مستوى أعلى. وبذلك يتحرك الإنسان كله حركة باطنية نحو الحق ـــ أي الله ـــ بكل كيانه البشري.

هكذا يتخذ الإنسان موقفاً جديداً بسبب الكلمة و بواسطتها، و يتحرك في سلسلة من التحركات الباطنية، هي ما يُعبَّر عنه بالسير في الطريق الضيق المؤدي إلى ملكوت الله. وعلامة هذا التحرك تكون تغييراً مستمراً في وعي الإنسان وسلوكه.

من ذلك نرى أن إيماننا بقوة الكلمة وفعاليتها، مع شعورنا بهيبتها، وتسليمنا لسلطانها، هو الذي يؤهلنا للدخول فيها واستقبال فعلها وتأثيرها والسير في الطريق بنورها وقيادتها.



الكلمة شرارة الإيمان و بالإيمان الحياة

□□□

كلمة الله هي بمثابة دعوة للمقابلة. فبمجرد أن تستقر الكلمة في الأعماق يتحرك القلب نحوها إما بالقبول أو بالرفض (أو بالتشكك).

قبول كلمة الله هو بمثابة إستجابة لدعوة الله، والإستجابة بحد ذاتها حركة نحو الله يتبعها نور بسيط ورؤيا وأخذٌ على مستوى مبدئي، وهذا يلازمه في الحال فعل إيمان يتولد في القلب «إذاً الإيمان بالخبر والخبر بكلمة الله.»[16]

الإستجابة لكلمة الله تأتي من أعماق سرية كنتيجة لتقديس الكلمة وتكريمها في القلب والشعور بهيبتها كحالة تسليم. يستحيل أن تأتي الإستجابة الباطنية بإقناع اللحم والدم: «إن لحماً ودماً لم يعلن لك.»[17]

ولأن كلمة الله هي دائماً أعلى من قامة الإنسان، ومتطلباتها هي ضد ميوله الطبيعية، لذلك يبدو للإنسان أنه بإيمانه بالكلمة و بإستجابته لمتطلباتها يباشر فعل مغامرة ضد ذاته. ولكن الذي يشجعه و يدفعه أن يقف ضد نفسه هو شعوره العميق أنه يعمل عملاً إلهياً ليس من هذا الدهر!

ومجرد الإذعان للكلمة والإستجابة لها باطنياً، يُدخل الإنسان في شعور أكيد أنه قد ارتفع إلى حالة أعلى مما كان فيها، كما يحس بفرح غامر ورضي وارتياح بالرغم من تأكده من حصول خسارة مادية جسيمة إزاء هذه الحركة الجديدة.

---

(١٦) رو ١٠: ١٧.　　(١٧) مت ١٦: ١٧.

هذه المشاعر كلها تثبت أن فعل الإيمان ليس من طبيعة الجسد، وإنما هو قوة وطاقة روحية جديدة اقتحمت أعماق الإنسان ورفعته فوق ذاته كإستجابة للإستجابة، أي إستجابة الله لإستجابة الإنسان ولخضوعه للكلمة!

ولو وقفنا برهة لنسأل كيف اخترنا أن نلقي بأنفسنا على الكلمة ونستجيب لها ضد ذواتنا، دون أي سند من الواقع أو تشجيع زمني أو مكسب منظور من أي نوع، بل على العكس تحت تهديد الخسارة الأكيدة والمعاناة والبذل بل والإضطهاد من أقرب المقرَّبين، بل وحتى من المدَّعين بحفظهم للكلمة، فإننا نندهش وندرك أن الإيمان هو فعل مستحيل كمعجزة في صميم الحياة.

ولأن الإيمان هو في الواقع فعل مغامرة ضد الذات وضد مطالب الإنسان الطبيعية، لذلك فإنه بمجرد قبول الإيمان يتولد لدى الإنسان خبرة جديدة هي خبرة الدخول في المستحيلات، وخبرة تذوُّق الحقيقة الروحية كحدث فائق معاكس للزمان والمادة، لا يسنده شيء من الواقع أو المنطق أو المنفعة المادية. كما ينشأ في الإنسان قدرة جديدة للموازنة بين الروحيات والماديات، وبين ضرورات الواقع الزمني وحرية الروح اللامحدود. كما يتكون لدى الإنسان طاقة المغامرة ضد ذاته التي هي أهم النتائج المباشرة للإيمان، إذ بهذه الطاقة يبتدىء الإنسان يعدل سلوكه وحياته كلها من أصولها!

هذه الخبرات كلها تتولد من الإيمان ... ولكن يستحيل أن تسبق الإيمان أو تتولد بدونه، لأن هذه الخبرات ضد الواقع، وفي نفس الوقت هي أعلى من طاقة الإنسان الطبيعية.

وحسب الترتيب الإلهي لا يسبق الإيمانَ إلا طاعةُ الكلمة وتكريمُها. وحتى

طاعة الكلمة فهي ممكنة فقط بسبب النعمة الموجودة في الكلمة والملازمة لها كقوة جاذبة مُرحِّبة، فالذي يطيع الكلمة فهو يطيع، في الواقع، جذب النعمة «وكان الجميع يشهدون له و يتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه.» (١٨)

النعمة تنادي بالكلمة وتجذب السامعين سراً حتى لا يجدوا صعوبة في الإنحياز والتحرك نحوها!

وهكذا وحتى في قبولنا للكلمة وطاعتنا لها نجد الله صاحب أسبقية وصاحب فضل وسبباً خفياً وشريكاً معنا في استجابتنا لها!! الله دائماً صاحب مبادرة فعالة، والحدث الإلهي دائماً يقتحم مجال الإنسان كأول.

ومن هذا نرى أن الإيمان هو هبة النعمة، وبذلك يتضح لنا سر الآية: «لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله.» (١٩)

ومن النتائج الهامة جداً للإيمان، تولُّد إمكانية جديدة للإنسان للوقوف ضد ذاته، كما سبق وقلنا، وذلك بسبب قبوله خبرة روحية أعلى من ذاته وأعلى من الواقع والعالم والمنطق البشري. هذه الخبرة تعطيه سنداً قوياً وشجاعة وجرأة لإنكار ذاته والإنحياز لله. وهذا بالتالي يولِّد فيه إحساساً قوياً بعنصر الرجاء بغير المنظور و بغير الواقع المحسوس.

إن وقوف الإنسان منكراً لذاته متشدداً بالرجاء بالله، يُعتبر قاعدة متينة لقبول التعرف على الله والحياة معه على أساس التحرر الكامل من الذات والعالم!

إبراهيم نموذج حي لإنسان أطاع الكلمة، وآمن بالله، وأنكر ذاته، وعاش مع الله.

---

(١٨) لو ٤ : ٢٢.

(١٩) أف ٢ : ٨.

الـكـلـمـة لم تكن معروفة عند إبراهيم . إبراهيم واجهها في جِدَّة ، ولكن ليس في استغراب ، مما يدل على أن في الكلمة عنصراً ذاتياً خاصاً مُرحِّباً وجاذباً للإنسان .

وإبراهيم لم ينتفع بخبرات إيمانية سابقة ، مما يدل على أن الإيمان لا يقوم على الخبرة أو المنطق . إبراهيم أطاع وآمن وترك أهله وعشيرته ووطنه وخرج وهو لا يعلم أين يذهب . هذه هي النتيجة المباشرة للإيمان ، وهذا هو عمل الطاقة الروحية المتولدة منه ، حيث تولّدت لدى إبراهيم قدرة للإرتفاع فوق ذاته وضد طبيعته وغرائزه وضد الواقع الزمني وكل تكيفاته !

هنا بلغ إبراهيم الإنكار الكلي للنفس ، وتعلّق بالرجاء بالله ، معتمداً إعتماداً كلياً على كلمته ، شاخصاً إلى غير المنظور كحقيقة أهم وأفضل وأثبت من الواقع . ومما زاد من يقين رجائه وعدم إعتماده على أي عامل زمني أو ارتكانه على شيء منظور كلية ، هو استعداده لتقديم إسحق ابنه ذبيحة ، الذي به تعلّق كل رجائه لميراث وعد الله .

وهكذا نرى بغاية الوضوح أن إيمان إبراهيم حدثٌ فائق روحي إلى أقصى حد ، فلا عجب أن صار نموذجاً لكل إيمان .

وبهذا الإيمان الفعّال والغالب للطبيعة البشرية عاش إبراهيم مع الله ، وأحبه الله وتصادق معه ، ودُعي إبراهيم خليل الله ، وأخذ وعد البركة لنسله ولكل الأمم .

هذه الخبرة عينها جازتها مريم العذراء لما أطاعت الكلمة على مستوى لم يكن له مثيل قبلاً . فكان إيمانها تجديداً لإيمان إبراهيم وتكميلاً له .

لقد أطاعت القديسة العذراء مريم كلمة الله « وآمنت أن يتم ما قيل لها من قِبَل

الرب»[٢٠]، بالرغم من أن مطلب الكلمة كان ضداً للمنطق «لست أعرف رجلاً»[٢١]، وضداً للواقع «كيف يكون هذا؟» إذ لم يحدث شيء مثل هذا قط.

إيمان العذراء حدثٌ فائق للمنطق والواقع.

بهذا الإيمان انحازت العذراء إلى الله بكل كيانها الداخلي كمغامرة عظمى ضد ذاتها والعالم وكل منطق وعُرف وتقليد، وعاشت على الرجاء فقط وتحقيق غير المنظور. وبهذا مهدت بإيمانها حلول الله في أحشائها كما حلَّ الله في خيمة إبراهيم.

و بذلك صار إيمانها واسطة لإستعلان الله للعالم كله، فهي آبنة إبراهيم بالإيمان بصورة ممتازة. وعَبْر إيمانها كمل وعد الله لإبراهيم وتباركت بسببها جميع الأمم في كل الأجيال.



(٢٠) لو١ : ٤٥.

(٢١) لو١ : ٣٤.

الحياة المسيحية استمرار لفعل الإيمان

□□□

الحياة تكون روحية بقدرما يكون فيها من إيمان. استمرار الحياة الروحية لا يُفهم على أنه استمرار زمني، لأن الحياة الروحية لا يقاس عمقها أو طولها بالسنين، وإنما هي استمرار لوجود الإيمان، **وعلامته هي استطاعتنا الوقوف ضد أنفسنا وضد تيارات العالم مهما كانت الخسارة**، و بالتالي يقاس الإيمان بمقدار حياتنا الإيجابية مع الله وثبوت رجائنا فيما هو آتٍ بيقين وفرح يزيد من حريتنا.

أي أن طول الحياة الروحية واستمرارها هو في الواقع **قياس باطني** لا يمكن أن يكتشفه الناس لأنه حَدَث إيماني فائق يكمِّل فعله في الداخل لتجريد الإنسان من ذاتيته ولغلبة العالم ومبادئه وأمانيه وإخضاعها لسيادة الروح.

هذا العمق لا يظهر منه للناس إلا موقف عرضي من المواقف التي تلحُّ على الإنسان أحياناً وتجبره أن يقف اضطراراً ضد العالم أو الذات، كتوبيخ إيليا لآخاب أو يوحنا المعمدان لهيرودس أو شهادة الشهداء أو خروج أنطونيوس من العالم، حيث يصبح الموقف علامة تثبت وجود الإيمان وتزكيه.

ولكن **المواقف لا تصنع الحياة الروحية.** الذي يصنع الحياة الروحية هو فعل الإيمان وتغلغله في الكيان البشري. وهو يتكون سراً في الأعماق كحصيلة تتجمع من اتصالات الإنسان المستمرة بالله عن طريق الكلمة والدخول معه في استجابات متوالية حسب مطالب الكلمة أي وصاياه.

ولكن الإيمان عموماً يبدأ كقوة روحية داخلية عارية من كل شكل وليس لها علامة تميزها عن غيرها من الطاقات البشرية الأخرى. غير أنه سرعان ما تلتحم هذه القوة بمطالب الطبيعة البشرية والعالم والناس التي لا تتمشى مع حرية الروح. وحينئذ تصطرع القوة الإيمانية مع الواقع المخالف لها، فتبتدىء تتكشف، و يتحدد اتجاهها وعمقها وطولها وعرضها بقدر موقفها المعاكس.

استمرار الحياة الروحية هو إذن استمرار لفعل الإيمان ونشاطه و بالتالي استمرار لحرية الروح بمقتضى الكلمة حيث يظهر هذا الفعل من حين لآخر على هيئة موقف واضح صريح ضد العالم والذات، إثباتاً لحيوية الإيمان واستمرار الحياة الروحية.

ممالأة الإنسان للعالم، والتكيُّف لمطالبه، وخضوع الإنسان لتياراته ولظروفه، استرضاءً للناس وإبقاءً للأحوال كما هي وحفظاً للمركز ولراحة البال؛ هي دلالة على ضياع عزم الإيمان واضمحلال فعله وانعدام الحياة الروحية.

غير أن عمل الإيمان الداخلي لا يخضع لمنطق الناس ولا يمكن تقديره بأي قياس بشري، لأن الذي يتحكم في عمل الإيمان دوافع داخلية مستترة لا يمكن لأي عين أن تفحص عمقها. الله وحده هو الذي يقيس عمل الإيمان ويمدحه.

لذلك فالحياة المسيحية بالرغم مما يكون فيها من مظاهر تَقَوية وأعمال إيمانية، إلا أنه يستحيل الحكم فيها من قِبَل الناس «لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي ينير خفايا الظلام و يُظهر آراء القلوب. وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله.» (٢٢)

(٢٢) ١ كو٤ : ٥.

فحياتنا أو وجودنا المسيحي القائم على الإيمان، هو حياة، أو هو وجود «مستتر» عن العالم والناس لا يمكن كشفه، «مستتر مع المسيح» (٢٣)، لأن المسيح نفسه مستتر أيضاً عن العالم وعن أحكام الناس وقياساتهم العقلية.

لذلك فإن عمل الإيمان، بالرغم من أنه ينشيء أحياناً علامات على وجوده بالمواقف الروحية التي نقفها أحياناً ضد أنفسنا أو العالم، يمتاز بأنه يظل غير خاضع لأحكام الناس وفي أمان من تقلبات الأوضاع أو الزمن: «أقل شيء عندي هو أن يحكم فيَّ **منكم** أو من **يوم بشر**، بل لست أحكم في نفسي أيضاً.» (٢٤)

لذلك، فالذي يريد أن يتمم عمل الإيمان ويحيا للمسيح، يلزم أن يكون قد تحرر من فكر الناس وأحكامهم وانتقاداتهم ومن اعتبار الزمن والظروف وقيمة التاريخ.

عمل الإيمان ليس مستتراً فقط عن أحكام الناس، بل هو أيضاً مستتر عن عين صاحبه. فالإنسان لا يستطيع أن يزكي عمله أو إيمانه: «لأنه ليس من مدح نفسه هو المزكَّى بل من يمدحه الرب.» (٢٥)

نحن مطالَبون بأن نطيع الكلمة ونعمل عمل الإيمان دون أن يزوغ قلبنا وراء الجزاء أو الشهادة لأنفسنا، **لأن كل رجاء نرجوه في الحاضر من وراء أعمالنا هو ردَّة إلى الذات**. وإرضاءُ الذات هو سقوط من الإيمان. **لأن الإيمان حدثٌ فائق للزمان منكرٌ للذات والواقع والرجاء المنظور.**

نحن نقدم أعمال إيماننا لله ولا ندري ما حكم الله فيها. لقد انتزع الله من أيدينا

---

(٢٣) كو ٣ : ٣.

(٢٤) ١ كو ٤ : ٣.

(٢٥) ٢ كو ١٠ : ١٨.

الحكم على أعمال الإيمان سواء إيماننا أو إيمان الآخرين، لأن طبيعة الإيمان وعمله فائقان على قياس العقل البشري.

ولكن بالرغم من أننا **لا ندري** حكم الله على عمل الإيمان، إلا أن الإيمان نفسه هو حالة **ثقة ويقين** بالله.

نحن **لا نثق بأعمالنا** ولا بأنفسنا، ولكن **نثق بالله** وعمله!

نحن لا نتيقن قط من صلاح أعمالنا، ولكننا نتيقن جداً من صلاح الله وكل أعماله نحونا!

بسبب ذلك نحن نستمد ثقتنا بالله ويقيننا بصلاحه من إيماننا وليس من أعمالنا.

لذلك فنحن في ثقة متجددة بسبب إيماننا بالله ولكن لسنا في أمان بسبب أعمالنا!

هذا هو روح الإيمان الذي يُضمر حيوية وفعالية منطلقة في الله، وتحفُّظاً بليغاً ضد التواكل والإستكانة.

الحياة المسيحية ارتقاءٌ فوق الطبيعة البشر ية

□□□

إن عمل الكلمة في الحياة المسيحية، إنْ من جهة بدئها في المعمودية أو في استمرارها، قائم على أساس تفوُّق الكلمة على الطبيعة البشر ية وقدرتها على الإلتحام بها لتغييرها والإرتقاء بها.

ولكن الذي يقلق الإنسان المسيحي، توهُّمه إمكانية التبر ير والتقديس الكلي بالكلمة، أي حصول تغيير جوهري كامل للطبيعة البشر ية كإستعلان حسي كامل منظور لفعل الخَلْق الجديد الذي تم في المعمودية. و يكون نتيجة ذلك أنه طالما يتطلع الإنسان إلى حالة لا يمكن أن يبلغها، فإنه يفوت عليه الإنتفاع بما تم فيه وبما يمكن أن يتم فيه!

فالإنسان، بالعماد، لا يصبح قديساً أو باراً بالمعنى الكامل، فالأبرار والقديسون الكاملون هم في السماء في الحالة الروحية الصافية «أرواح أبرار مكمَّلين» (٢٦)، حيث الكنيسة المنتصرة. الإنسان الخاطىء يصير بالعماد «خاطئاً متبرراً» أو «خاطئاً متقدساً» فقط. هذه هي حقيقة الإيمان وواقعه العملي. فالإنسان لا يستطيع أن ينكر **أنه خاطىء**، ولا يستطيع أن ينكر **أنه متبرر ومتقدس بدم المسيح**.

فالتبر ير والتقديس اللذان نلناهما بالمعمودية بحسب القول: «لكن اغتسلتم بل

(٢٦) عب ١٢ : ٢٣ .

تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع و بروح إلهنا» (٢٧) لا يلغيان حقيقة كوننا خطاة، ولا يرفعان من كياننا مَيْلَنا للخضوع لأركان العالم الميتة وعبودية شهواته وجذب الخطايا. ولكن رحمة إلهنا دعتنا ونحن خطاة واقتبلتنا كأخصَّاء لله، وأعطتنا سر الكلمة سواء في الإنجيل أو في الأسرار، حتى نستطيع أن نتجاوز طبيعتنا العاجزة كما تجاوز عنها الله، وأن نسمو برحمة إلهنا ومؤازرة نعمته لنتمم خلاصنا يوماً فيوماً «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة» (٢٨)، لا بقدر عجزنا ولكن بقدر ما نأخذه من قوة.

الكلمة لا تلغي عجزنا، ولكن تتجاوزه وترفعنا فوقه كعين رحيمة تطل علينا من فوق العالم، وتدعونا أن نطأ عجزنا على أساس إمدادنا بسر قوة الله. البناء الروحي للحياة المسيحية عكس البناء الجسدي على وجه العموم، فالبناء الجسدي يُبنى من أسفل بسبب جذب الأرض، فيُبنى بيد الإنسان. ولكن البناء الروحي يُبنى من فوق بسبب جذب الله وعلى أساس أن **الله هو الذي يبني**. حياتنا المسيحية أساسها فوق وليس أسفل، فهي لا تبدأ من عجزنا ولكن تبدأ من قوة الله. نحن لا يلزمنا أن ندفع أنفسنا إلى فوق، لأننا في ذلك نحن عاجزون تماماً؛ ولكن يلزمنا أن نستجيب لرفع الله وجذب النعمة بالكلمة والسر قليلاً قليلاً، لكي نرتفع فوق أنفسنا ونتجاوز ضعفنا بقوة الله.

استجابتنا لرفع الله ليست هينة، هي أيضاً معاناة، لأننا نحمل ثقلنا معنا، ولكننا إذ نستسلم لله نتجاوز ضعفنا فنرتفع في الحال. فالصعود دائماً مخيف للضعيف. ولكن طالما كانت اليد الرافعة هي يد الله، والمصدر الجاذب لنا هو سر النعمة؛ فلا يلزمنا إلا أن نسلِّم فكرنا أولاً ثم حياتنا فنصعد (٢٩).

(٢٧) ١ كو ٦ : ١١.	(٢٨) في ٢ : ١٢.

(٢٩) هذا لا يعني أن لا يكون لنا عمل وموقف إيجابي أو أننا نتجاهل أو نتجاوز خطايانا، فهنا المقصود هو إيجابية عمل الكلمة من ناحية الله.

الحياة المسيحية تتجه لتمجيد الله
من البداية إلى النهاية

□□□

عمل الكلمة في حياتنا يضمن لنا تغييراً في طبيعتنا غير مدرَك، وإنما يُستعلن في حياة مبرَّرة مقدسة. القصد والغاية من هذه الحياة منذ الآن وإلى الأبد هو أن نصير مع الله في شركة، يصير له فيها كل المجد والكرامة والعزة والسلطان، دون أن نفقد كياننا الفردي، إذ نظل وارثين مع المسيح ومالكين معه.

فإذا تعمقنا موضوع حياتنا وعبادتنا على ضوء هذه الحقيقة، نجد أنها تتجه نحو الله. وأن بمقدار اتجاهها نحو الله تصير سبباً وعلة لحصولنا على شركة معه في غناه ومجده والحياة السعيدة عنده. أي إنه بمقدار ما تصبح عبادتنا وتقوانا و برُّنا وقداستنا وكل أعمالنا الروحية متجهة نحو الله بصورة نقية خالصة وقاطعة لتخدم اسمه القدوس دون أن يشوبها أي ميل للإنتفاع بهذه العبادة والأعمال لتمجيد أنفسنا أو لربحنا الشخصي بأية وسيلة و بأي نوع؛ بمقدار ما تصير حياتنا المسيحية ربحاً لنا. هذه الحقيقة غامضة، وتبدو على المستوى العملي صعبة ومتناقضة مع طبيعتنا، لأننا دائماً نتطلب المنفعة الحاضرة السريعة من أي عمل نقوم به.

ولكن العبادة بكل أصولها وفروعها يلزم أن تكون واضحة أمام ذهننا باستمرار أنها خدمة مقدسة لشخص الله وليست وسائل لتحسين أو تقويم حياتنا على الأرض. فإذا اتجهت العبادة ناحية نفع الإنسان انفصلت حياتنا عن الله وصارت العبادة نوعاً من الطموح للإرتقاء على مستوى بشري.

إن التغيير الذي تجوزه طبيعة الإنسان بواسطة كلمة الله وسر المسيح، سواء في المعمودية أو بعدها، لا يُزيد من القيمة البشرية في الإنسان وإنما يُزيد من القيمة الإلهية فيه، أي يجعله هذا التغيير أكثر تبعية لله من نفسه.

فكل تحوُّل أو تغيير أو تجديد تجوزه طبيعتنا يجعلها أكثر قرباً إلى طبيعة الله، وبالتالي أكثر صلاحية لخدمته وتمجيده.

فالحياة المسيحية الناشطة هي حياة خدمة وتمجيد لله أكثر منها حياة إنسانية. والعبادة فيها لا تُحسب ولا تُضاف لحساب الإنسان حتى يُعتبر الإنسان ذا تقوى أو صاحب عبادة، كأن عبادة الله في حد ذاتها تُزيد الإنسان مجداً؛ ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فالإنسان المسيحي إنسان لا يعيش لنفسه، ولا يعبد لمنفعته، ولكنه يتجه بكل كيانه نحو الله مزدرياً بنفسه. وإذ يتنازل عن كل ماله لله ويسلّم حياته ورجاءه له ويصبح فقيراً ملتجئاً إلى الله ويفقد كل اختصاصه بنفسه ويصير من خاصة الله، حينئذ فقط يأخذ من الله كرامة ومجداً، ويصير حياً به ومعه؛ وهنا أيضاً تصير كرامة الإنسان عائدة إلى الله بكمالها لأن الإنسان آنئذ لا يكف عن تمجيد الله بكل كيانه.

والله لا يكرم الإنسان عندما يعبده، ولكن عندما ينكر ذاته، معطياً كل المجد لله: «ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين: أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلقت.» (٣٠)

***

---

(٣٠) رؤ ٤: ١٠ و١١.

الحياة المسيحية والأخلاق والسلوك

□□□

الأخلاق والسلوك لا ينفصلان عن الكلمة. هما الدين مُعاشاً عملياً. ولكن ليسا هما غاية الدين أو غاية الكلمة، **فغاية الدين وغاية الكلمة هي حياة الدهر الآتي** والملكوت الذي نترجّاه بالإيمان ونعيشه بالقلب.

الكلمة تدعو إلى الدخول من الباب الضيق والمسير على طريق كرب. الأخلاق والسلوك في الحياة المسيحية لا يمكن أن يتصالحا مع الباب الواسع أو يستجيبا للطريق المريح. فطابعهما هو طابع الكلمة بتمسُّك لا هوادة فيه ولا تحوير أو تفاهم.

ولكن ليس هذا معناه أن الأخلاق والسلوك في المسيحية يعانيان ضيقاً وتزمتاً طبيعيين، على العكس، فروح القيامة والتجلي والنصرة على العالم بالروح يطعِّمان الأخلاق والسلوك في المسيحية بسعة قلب وفرح واكتفاء عجيب.

ولكن سعة الروح تتعارض مع سعة الجسد: هنا ينشأ الباب الضيق.
وهدف الروح يتعارض مع هدف الجسد: هنا ينشأ الطريق الكرب.

الإنسان مدعو لمعاناة ضبط الجسد وقمعه، ولكن في أقل حيز من الحرية والمتعة والترفيه الكافيين لقوام حياته وصحته على المستوى السليم السوِّي، حتى لا يطغى على حرية الروح فيستعبدها. هذا هو العبور من الباب الضيق.

كذلك فالإنسان مدعو باستمرار ليقظة روحية واعية حتى لا يقف الجسد بعواطفه وميوله وغرائزه ليتحكم في حوادث الحياة اليومية و يتصرف في مواقف الإنسان فينحرف هدف الحياة كلها و يصير أرضياً زمنياً. وهذا يتطلب تدخلاً روحياً ووعياً بالكلمة خصوصاً في وقتها لمقاومة دوافع الجسد الطبيعية. وهذا معنى السير في الطريق الكرب.

والباب الضيق والطريق الكرب يخصان الجسد وميوله الجسدية، أما الروح فتبقى دائماً في سعة وفرح واكتفاء كلي وسلام.

العبور من الباب الضيق، والمسير على الطريق الكرب لا يستنفذان قط سعة الروح وفرحها واكتفائها وسلامها. **الإنسان يستمد القدرة على العبور الضيق والمسير الكرب من حبه للمسيح فقط وليس من أي مصدر آخر إطلاقاً.** لأن كل بذل وتضحية لا ينبعان من حب المسيح، لا يوصّلان إلى شيء بل يُفسدان الجسد والروح كليهما.

وكل بذل وتضحية مهما بلغا حتى إلى المرض والعجز والموت وكانا نابعين من حب المسيح، فإنها يؤديان حتماً إلى نجاح ونصرة وحياة أبدية.

الحياة المسيحية لا تنشغل إطلاقاً بقيمة الأخلاق ولكن بجمالها، جمالها الروحي. والذي يستهوي القلب المسيحي في السلوك ليس دقته وصرامته ولكن روحانيته واتساعه الإلهي.

الأخلاق والسلوك في الحياة المسيحية لا يقومان بالتطبيق الآلي أو العقلي أو الأعمى للكلمة، ولكن بالروح كإلهام الحياة للقلب حسب ما يُقسم لكل واحد من هبة كنعمة الله. فالكلمة الواحدة تطبع وتلهم أنواعاً متعددة من الأخلاق والسلوك،

والآية التي يراها واحد أنها تلهمه التواضع يراها الآخر تلهمه المحبة.

إن أخطر ما في موضوع الأخلاق والسلوك في حياة الإنسان المسيحي هو تعرضها للتغيير المستمر. فهناك تغيير يلتزم بجوهر الحياة المسيحية حيث ينمو الإنسان في الحق والحرية بالتغيير المستمر، فتُخصب أخلاقه بالخبرات والإحتكاكات المتوالية. وكلما تقدمت الأيام بالإنسان كلما أثرى في الروح وتقاربت ملامح حياته وتصرفاته وكلماته وفكره من المسيح. وهناك تغيير مفسد لحياة الإنسان يهبط به إلى مستويات هزيلة من السلوك والتصرف تحيِّر العقل، إذ يظهر الإنسان أنه لا يخون كلام الله فقط ولكن يخون نفسه، وبالأخص جداً إزاء المحن والمخاطر والإضطهادات. إذ نجد الشخص يبيع حريته بل يبيع الحق نفسه ليخرج من الورطة أو ليتحاشى التعب أو الضيقة أو ليكسب مكسباً أو يغنم غنيمة، ونصبح فنجده منطبعاً مع الحوادث فلا نستطيع أن نتبين شكله الأول!

إن أعظم خيانة هي أن يخون الإنسان نفسه أي يفقد الرؤيا الخاصة التي أُعلنت له في فجر حياته، التي رسمها له الروح كرسالة حياة، كأمانة أو كوزنة العمر. هذا يكون بمثابة استقالة من الحياة بالرغم من بقاء الإنسان يؤدي واجبات متعددة.

إن حجة الكثيرين من الذين يخونون أنفسهم في معترك الحياة المسيحية، ويخضعون للحوادث ويتكيفون بلباقة وسهولة مع الظروف المتقلبة هي أنه ينبغي أن يكون الإنسان واقعياً. ولكن الواقعية المسيحية هي مثالية على كل وجه. المسيح في واقع حياته لم يفقد سموه الأخلاقي والروحي لحظة واحدة. واقعية المسيح لم تدفعه لينطوي تحت الظروف أو يخضع للتهديد أو ينهار أمام شدة وجبروت المقاومة.

هناك واقع خارجي ممسوخ يفرضه العالم على الإنسان ليستعبده، تارة تحت إغراء

المنفعة بأي نوع وتارة تحت تهديد المضرَّة بأي نوع. وهناك واقع داخلي يعرضه الروح ليعيشه الإنسان فيرتقي فوق العالم و يغلبه بأن يسمو بواقعه وحتمياته و يرتفع بها إلى مستوى الروح، أي لا يحرر نفسه فقط من العالم بل يحرر العالم وموضوعاته معه! هذا الواقع الداخلي هو واقع الكلمة الحرة، واقع المسيح المتجسد والغالب للجسد، والمسيح المتنازل إلى العالم والمخلِّص العالم.

الواقعية المسيحية لا تقوم على حقيقة الحوادث اليومية والموضوعات التي يفرضها العالم، فهذه حقيقة وهمية كاذبة خادعة. الواقعية المسيحية تقوم على سر الروح وحقيقة الحق وصدق كلمة الله وثبوتها أكثر من السماء والأرض التي نقف عليها.

والإنسان الذي لا يؤمن بالحقيقة القائمة على سر الله وكلمته هو إنسان يحيا ليس في الواقع كما يدَّعي، بل في وَهْمٍ سرعان ما تبدده الحوادث نفسها فتتبدد آماله وحياته معها.

المسيحية تعمل بالكلمة وبحياة الأتقياء على كشف حقيقة الروح والحياة الروحية وحياة الدهر الآتي. فإذا اعتبرناها لهذا الدهر، نكون قد خُنَّا المسيحية وخُنَّا الكلمة وخُنَّا الروح والحق، إن لم يكن بتعبيرنا الفكري وتصريحنا اللفظي، فبتصرُّفنا وسلوكنا.

الأخلاق والسلوك في المسيحية ينبغي أن يكونا شهادة على إيماننا بحياة الدهر الآتي. ومثل هذا السلوك كفيل بأن يغير العالم حولنا فنعمل عمل البشارة.

كلمة الله لها قدرة في ذاتها أن توقف الإنسان دائماً أمام مناقضة داخلية لأنها تكشف له الحق وتكشف له نفسه كغير متمم للحق. وإزاء هذا الكشف يسأل الإنسان دائماً بلهفة وتوجع: ماذا أعمل؟ هذه نقطة الإنطلاق في السلوك المسيحي!

الكلمة توجِّه، فهي عليها إيقاظ الوعي.
كلمة الإنجيل ليست ناموساً ولا قانوناً. و بالرغم من ذلك، فإن لها سلطاناً على ضمير الإنسان أقوى من الناموس وأعمق من القانون! فالله نفسه يخاطبنا بواسطة الكلمة...

والكلمة عرَّفها الله لنا بوضوح أنها روح وحياة(٣١): روح لأنها تخلق، وحياة لأنها تقيم من الموت! كذلك عرَّفها لنا يوحنا الرسول أنها نعمة وحق(٣٢): نعمة كونها تهب لنا الغفران مجاناً، وحق كونها تجدد ذهن الإنسان بالمعرفة فتحرر إرادته.

لذلك، فالكلمة بهذا الوصف مُنطَلَق للسلوك ومنبع للأخلاق. فهي تكشف الحق، وتؤنب الضمير، وتقيم من الموت، وتخلق حياة جديدة، وتغفر الخطايا، وتجدد الذهن، وتحرر الإرادة. فإذا تصورنا معلماً أو طبيباً له هذه القدرات فكم يكون نافعاً لتأسيس أخلاق الإنسان وسلوكه؟!

□

ويمكن تقسيم عمل الكلمة في الأخلاق والسلوك على مرحلتين متتاليتين، كطريق مزدوج: من الله للإنسان أولاً، ثم من الإنسان لله ثانياً.

المرحلة الأولى: من الله للإنسان:

الخطية قبل كل شيء جهالة، أما الضلالة فهي قلة معرفة: «تضلُّون إذ لا تعرفون الكتب» (٣٣). لذلك كان كشف الحق أول وأهم خطوة لازمة للسلوك المسيحي. والعجيب أننا نجد الكلمة تقدم نفسها دائماً بهذا الترتيب. فهي تظهر

---

(٣١) يو ١ : ١٧ .
(٣٢) يو ٦ : ٦٣ .
(٣٣) مت ٢٢ : ٢٩ .

للمبتدىء كإعلان وتعريف للحق فيما يختص بالبر والدينونة والتعفف. لذلك فالإنسان الذي لا يقرأ الكلمة لا يعرف الحق، و يسير ولا يعلم إلى أين يسير، أو كما يقول الآباء: «يسير في التيه».

إذن، فأول وصية للسلوك المسيحي هي أن تقرأ الكلمة وتسمعها أينما كانت، تقرأها وتسمعها بإمعان وتدقيق لكشف الحق، لتعرف أين أنت.

حينما نعرف الحق ينتخس فينا الضمير، لأن الحق الذي تكشفه الكلمة ليس حقاً عقلياً مجرداً يمكن أن يتلهّى به العقل و يظل الضمير ميتاً. بل هو حق «ذاتي» أي له صفة شخصية «أنا هو الحق»(٣٤)!!

المسيح يدخل الضمير بالكلمة، يدخل والأبواب مغلقة. ولكنه لا يعطي سلاماً بل سيفاً(٣٥)! «فلما سمعوا نُخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة؟»(٣٦)

نخسة القلب أو تأنيب الضمير في السلوك المسيحي هي بمثابة أول علامة حياة. هي إشارة إلى أن سهم الحق الإلهي أصاب الهدف! وهنا تنشط الكلمة وتجمع ذخائرها وكنوزها وتتقدم كجبار يستطيع أن يخلّص! تتقدم ومعها عطايا الصليب والمعمودية وبقية الأسرار حيث «تبرر الفاجر»(٣٧) وتغسله وتقدّسه بالماء والدم وتصيِّره خليقة جديدة.

هذه في الواقع مرحلة العطاء المجاني في تكوين نواة السلوك، حيث يتنازل الله ليقابل الإنسان الخاطىء على حدود الموت ويهبه كلمة حياة وغفراناً مجاناً، ينتشله

---

(٣٤) يو ١٤ : ٦.
(٣٥) مت ١٠ : ٣٤.
(٣٦) أع ٢ : ٣٧.
(٣٧) رو ٤ : ٥.

من ورطة اليأس و يرفع من ضميره ثقل الخطيئة و يفتح له مجالات رحمة جديدة كلها هبات وكلها أخذ، بدون شروط، بدون تعب، بدون ثمن «الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور.» (٣٨)

الكلمة تصير للخاطىء كمنقذ، كمخلِّص، كباب مفتوح، وطريق مهيأ، كوليمة لم تكن تخطر له على بال «كل من وجدتموه فادعوه إلى العرس، فخرج أولئك العبيد إلى الطريق وجمعوا كل الذين وجدوهم أشراراً وصالحين. فامتلأ العرس من المتكئين» (٣٩). هكذا يقتحم المسيح حياة الأشرار وسلوكهم و يُلزمهم بمحبته واتضاعه أن يأتوا إليه.

الإنجيل كله ينفتح أمام الخاطىء كخطاب توصية، الوعود كلها تقف بجانبه، أسلحة الطريق تسلَّم له مجاناً مع ضمانات من النعمة ليجد عونها في حينه!

وإلى هنا ينتهي الطريق النازل من الله للإنسان، طريق الهبات، ليبتدىء الطريق الصاعد من الإنسان لله، طريق الجهاد.

المرحلة الثانية: من الإنسان لله:

السلوك المسيحي من جهة الإنسان ــ الذي نال كل هذه الهبات والتشجيعات ــ يتطلب توبة مع جهاد ضد الخطيئة «حتى الدم» (٤٠)، مع قمع الجسد وضبط الفكر و يقظة وسهر وتدقيق وصلاة بلا تهاون.

هبات المسيح تجعل توبة الإنسان المنعَم عليه بالغفران مشرقة ذات ثمار ناضجة «أثماراً تليق بالتوبة.» (٤١)

---

(٣٨) مت ٤: ١٦؛ إش ٩: ١و٢، ٤٢: ٧.
(٣٩) مت ٢٢: ٩ و١٠.
(٤٠) عب ١٢: ٤.
(٤١) مت ٣: ٨.

كـلـمـة الله بـالـنـسبة لطر يق جهاد التوبة كالخر يطة التي يفردها البحار أمامه و يـسير على هـداها بالليل والنهار، في الهدوء وفي العاصف. ولكل خطوة في السلوك المسيحي كلمة تهديها.

والـتوبة، في المفهوم المسيحي، هي عملية تغيير مستمر تنتهي كل مرة بمعرفة أوفر لإرادة الله عـن طـر يـق الـكلمة «تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم لتختبروا ما هـي إرادة الله الـصـالحـة المرضية الكاملة» (٤٢) **فقوة التوبة هي تجديد الذهن،** والكلمة مصدر التجديد.

الـكلمة تلهمنا المعرفة باستمرار، والمعرفة تحرك الإنسان باطنياً نحو الحق. لذلك فـعـمـلـيـة **تجـديـد الـذهـن هـي الـقوة الدافعة لتوجيه السلوك** حسب إرادة الله الصالحة.



(٤٢) رو١٢: ٢.

الحياة المسيحية ومحبة القريب

□□□

ومن هو قريبي؟ يرد المسيح أنه هو اليهودي بالنسبة للسامري، والسامري بالنسبة لليهودي. وهما بالطبيعة البشرية وبالسياسة أعداء. [٤٣]

الكلمة تفترض أن كل إنسان هو قريبي. هذا سر المحبة، والمحبة هي سر المسيح. كل الذين آمنوا بكلمة المسيح إيماناً قلبياً حاراً وصلوا إلى سر المحبة أي سر الوحدة الإنسانية!! فأدركوا غنى الكلمة ومجدها «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني **ليكونوا واحداً.**» [٤٤]

أي إن المجد الحقيقي للإنسان هو أن يكون واحداً مع أخيه! هذا هو سر مجد المسيح المخفي تحت سطح عالم الإنسان وهو سر أسرار الدهر الآتي.

الذي يبلغ القوة على الإتحاد **بكل إنسان** بالمحبة القلبية الخالصة يكون قد اكتشف سرّ الملكوت وابتدأ يعيشه. «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة.» [٤٥]

القدرة على محبة كل الناس محبة حقيقية خاصة هي، في الواقع، إشراقة نور تباغت القلب وتأسره فتذوب وتتبدد أمامها كل مماحكات العداوة وأسبابها، وتصير

---

(٤٣) مثل السامري الصالح — لو١٠: ٢٥—٣٧. (٤٤) يو١٧ : ٢٢ .

(٤٥) ١يو٣ : ١٤ .

المحبـة هيـنـة سـهـلـة لديه بل ورغبة ملحة تدفعه أن يركب الصعاب ليتمم مطالبها ويحتـمـل كـل شـيء في سبـيلها. **محبة القريب تنسكب في القلب بفعل الروح القـدس نـتـيـجة لإستعداد الإنسان بإخلاص للقيام بواجباتها.** واجبات المحبة باهـظة!: احتمال الألم، الصبر على المسيء، استعدادٌ للمغفرة قبل الإساءة وأثناء الإسـاءة و بـعـد الإسـاءة!! تـنازل الإنسان عن حقه وإنكار كرامته؛ تفضيل راحة الآخـر، عـدم التمسك بالرأي، سهولة التنازل عن كل ما هو جسدي، تكريم للمحبة فوق كـل شيء! ولكن كل هذه المطالب الباهظة لا تُحسب شيئاً بل تُنسى نسياناً إزاء اتباع المحبة وتذوُّق مجدها، لأن المحبة تجعل الإنسان في حالة تجلي فوق الجسد.

كـلمة الله إزاء وصية المحبة تقف آمرة مُلحَّة في أمرها من أول الكتاب إلى آخره لأنها تخفي وراء الأمر سر مجد الإنسان، سر تكميل كل الوصايا.

لـيس لمحبة القريب حدود إلا حدٌّ واحدٌ، هو ما يفصلها عن الله. لذلك فحدود محبـة الـقـريـب تـبلغ حد الخطر عند أول بادرة يحس فيها الإنسان أن محبة القريب لـيسـت صـادرة مـباشرة من محبة الله! وإنما صادرة من مشاعر وعواطف خصوصية. هنا تخرج محبة القريب عن معنى الحب الإلهي وتصير مخالفة للوصية.

محبـة الـقـريـب مـيزانها الداخلي أن تكون نابعة من محبة الله كفيض من الفرح يخلـق الـرغـبـة الـعـمـيقة في البذل لإسعاد الآخرين. حيث لا يحس الإنسان بلذة شـخـصـيـة مـنعزلة أو إرضاء للذات أو أي ميل للمنفعة أو المجازاة البشرية، أو حتى الـعـرفـان بـالجـمـيـل. وإنما يـكون إحساس الإنسان كله منصباً في إرضاء محبة الله وتكريم الوصية.

***

الحياة المسيحية ومشكلة العصر

□□□

الكلمة شريكة مع الإنسان في كل ظروف حياته منذ أن وُجد على الأرض. والكلمة لا تتجاهل الواقع الذي يعيشه الإنسان، فهي مرسَلة له، لا لكي يتوارى خلفها خوفاً من الباطل، ولا لمجرد أن يفرق بواسطتها بين الحق والباطل، بل لكي يحل بها مشكلة الباطل ويحرر الإنسان من ورطته.

العالم، وإن كان يموج بتيارات كثيرة مخالفة لله و يتعرض لهزات إيمانية وأخلاقية خطرة، إلا أنه ليس واحدة من هذه المخالفات والهزات تمر بنا إلا وتكون قد عبرت على ميزان الله بدقة وجازت عبر مشيئته. فإن كانت العصفورة لا تسقط على الأرض بدون إذن الآب[٤٦]، فكم تكون الشعوب والأمم؟! وإن كان شعر رؤوسنا محصي عند الله[٤٧]، فكم تكون النفوس؟! لابد أن تسقط العصفورة على الأرض وعدد شعر رأسنا لابد أن يتغير كل يوم، فعناية الآب السماوي لا تجمِّد الواقع البشري ولا تمنع الخسارة ولا توقف التغيير، ولكنها تُدخل الخسارة والتغيير ضمن خطة الخلاص العام، الذي فيه تتوارى الحقائق الجزئية إلى حين لتظهر الحقيقة الكاملة في النهاية.

حينما تمر بالعالم تيارات جديدة ضد الحق وتأخذ أقصى عنفوانها، يتهيأ للإنسان أن الكلمة فقدت قاعدتها في العالم، وأن العالم خرج عن ضبط الله وكسر نير

---

(٤٦) لو١٢ : ٦.　(٤٧) لو١٢ : ٧.

خضوعه. ولكن هذا وهمٌ، أو هو أثر الهزة قد أصاب قلب الإنسان فعتّم أمامه الرؤيا، إذ لا يمكن خروج العالم على الكلمة لأن العالم قائم بالكلمة! و يستحيل أن يشق العالم عصا الطاعة على الله لأنه يستمد وجوده من يده التي تضبطه!

الحاجة دائماً أن يرتفع الإنسان فوق العاصفة، ليرى كيف أن الكلمة تحيط بالعالم من كل الجهات ويحس باليد التي تمد العالم بالحياة يوماً بيوم.

من داخل العاصفة لا يمكن أن ترى كلمة الله ولا يحس أحد بقوتها وسلطانها.

كل ما يُعوز الإنسان في مواجهته لمشاكل العالم الفكرية وهزّاته الإلحادية واستحداثاته العلمية هو مزيد من الثقة بكلمة الله ومزيد من الخضوع لسلطانها. وحينئذ يرتفع في الحال فوق مشكلة العصر ليرى قدرة الله السرمدية وجلال مجده ونفاذ مشيئته فوق كل الأحداث، كسهم من نور يشق الظلام ويخترق الأجيال والعصور باتزان لا يعطله شيء عن بلوغ غايته.

حينما تسود النظريات الفكرية التي تتنكر للحق الإلهي وتتجاهل النور والروح و يبدو العالم أنه على حافة الإلحاد، وقد لفته سحابة مظلمة و يأس، واختفت كل بارقة أمل من القلوب الضعيفة، تعود كلمة الله تباشر سلطانها الخالق من داخل القلوب الأمينة و بواسطة الأفواه القديسة التي لم تتلوث ولم تنغمر في اليأس، و ينطق بها الله مرة أخرى «ليكن نور» (٤٨) فيكون النور وتنقشع السحابة المظلمة و يعود الإيمان وتزدهر الكلمة. و ينطوي العصر مخذولاً منهزماً.

هكذا دائماً تغمر العالم طوفانات متتالية من الشر، وهكذا يُبقي الله دائماً نوحاً

---

(٤٨) تك ١ : ٣.

وأبناءً لنوح في كل عصر، ليجدد بإيمانهم وجه الأرض.

الزمن دائماً في صراع مع الحق وهو مصدر لضعف الإيمان والتشكك بما يجلبه على قلب الإنسان من وقائع تبدو متناقضة مع حقيقة عبادته وحقيقة الروح، ولكن الخطر دائماً يترصد الإنسان إن هو دخل مع الواقع في حوار ومجادلة **دون أن يتسلح بكلمة الله**، لأن الفكر لا يُغلب بالفكر، والإنسان مهما اجتهد لا يزيد على قامته ولا ذراعاً واحدة.

قوة الإيمان أو قدرة الكلمة على الغلبة ليست كائنة في الصدام السلبي مع الواقع، ولكن في قبوله ثم الإرتفاع فوقه. **وكل من عاش مع الخطاة استطاع أن يموت من أجلهم**، ومن أدرك مرارة المنبوذين والأذلاء انفتح فمه بالدفاع عن حقوقهم المسلوبة.

الكلمة باب مفتوح لرجاء حي لا ينقطع في وسط محنة العالم التي لا تنتهي.

وفي الكلمة جواب مريح لكل سؤال يطرحه علينا العالم بتحدٍّ بقصد تعجيزنا.

وسعادة الحياة الأبدية قائمة بالكلمة منذ الآن فوق بؤس العالم وبالرغم من كل شقائه! فملكوت الله مُعلَن داخل قلب الإنسان حتى لا يتسرب يأس العالم إلى الداخل.

لقد عبر جيش عظيم من القديسين وسط محنة العالم وغلبوه بدم الخروف **وبكلمة شهادتهم** (٤٩). ونحن مدعوون أن نسير كمؤخرة منتصرة تحت رايتهم.

---

(٤٩) رؤ١٢ : ١١.

الحياة المسيحية ومواعيد الله

□□□

الحياة المسيحية تستمد وجودها مما أتمه المسيح بمجيئه الأول في ملء الزمان، وتستمد كمالها وبهاءها مما وعد به المسيح في مجيئه الثاني في نهاية الزمان. فمواعيد الله مصدر يستمد منه الإنسان ما ينقصه في الحاضر من قوة وعزاء ونصرة ورؤ يا مفرحة جذابة.

ومواعيد الله بالرغم من أنها لم تُستعلن بعد، إلا أنها كائنة روحياً لأنها غير زمنية في طبيعتها، لذلك يمكن أن تُرى بالروح وتُعاش بالإيمان.

و بقدر ما نتجاوز الأمور الزمنية بقدر ما نقترب من حقيقة مواعيد الله، وعندما يتلاشى تأثير الزمنيات وجذبها لقلوبنا ولعواطفنا، تنفتح أعيننا على الأبديات ونعيش في تحقيق مواعيد الله حيث تُضاء الحياة من الداخل بالنور الآتى من بعيد من أمام الأزمنة.

الحياة المسيحية في جوهرها النهائي وعدٌ بالحياة الآتية وشركة في مجد المسيح، فإذا غفل الإنسان عن هذه الحقيقة واكتفى بما يواجهه في الحاضر فقط متجاهلاً أو متجنّباً الإمتداد لرؤ ية وتذوُّق ما هو آتٍ، تتقلص حياته وتصير مجدبة وتكتنفها الشكوك والأسئلة المحيرة من كل جانب حتى تصبح القاعدة الإيمانية التي يبني عليها حياته مزعزعة. إذ لا يمكن تفسير الشر والألم والموت والعجز الذي يحجز الإنسان عن تحقيق ما يحسه في نفسه، وما ير يده من الكمال والقداسة إلا على أساس التغير الذي

يجوزه الإنسان الذي سينتهي حتماً بحالة قيامة وتجلي وفداء كلي، حيث يمسح الله بيديه كل دمعة حزينة من العيون الباكية(٥٠)، ويجبر كل كسر عانته النفوس البريئة، وحيث يحقق الإنسان كماله في الله خلواً من أي عجز وبدون عائق.

الذي يعيش في تحقيق وعود الله الآتية يعيش حياة مسيحية ظافرة فوق متناقضات الزمان وأوجاعه وشذوذه وإخفاقاته المتوالية، لا كأنه هارب من الصدام مع الواقع أو كمن يتحاشى الصعوبات والآلام بالفرار إلى الآمال والتخيلات، بل على النقيض، باقتحام الواقع وتبنّي كل أخطائه وإخفاقاته ومعالجتها بالروح مسنوداً برؤيا المستقبل الذي يتجلى فيه كل شيء حراً من كل عجز ومجيداً، فيسمو بها ويحررها روحياً من عجزها، وكإبن لله يعمل عمل الله في الخليقة ممهّداً للفداء الأخير. «لأن الخليقة نفسها أيضاً ستُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله.» (٥١)

إن الوعد الذي طرحه المسيح أمامنا بخصوص مجيئه الثاني بالمجد والبهاء لعزاء القلوب وتكميل حكم البر وسيادة القداسة وإنارة القلوب وردّ بقية الخطاة وإقصاء الشيطان، هذا الرجاء هو من صميم جوهر حياتنا الحاضرة. وهو ليس محجوزاً عنا الآن تماماً لأنه قد أُعطي لنا أن نراه كما في مرآة، وأن نعيشه إن لم يكن بالعيان فبالإيمان، الذي هو هبة فائقة في حد ذاتها: «حتى إنكم لستم ناقصين في موهبة ما وأنتم متوقعون استعلان ربنا يسوع المسيح.» (٥٢)

توقع هذا الإعلان هو حالة رجاء ملتهب إلى أقصى حدود الإيمان، يجعلنا نحيا في المسيح الآتي كما أتى، لأن للرب صورة واحدة في قلوبنا لا يخلخلها الزمان.

---

(٥٠) رؤ٧: ١٧.
(٥١) رو٨: ٢١.
(٥٢) ١كو١: ٧.

إن سر الفشل واليأس الذي ينتاب الكثيرين على الطريق الروحي بسبب الإخفاق المتكرر والإنغلاب للخطيئة مرجعه إلى عاملين خطرين: **الأول** إغفال الرجاء بمواعيد الله، **والثاني** التركيز بشدة على الإخفاق والإنغلاب.

فبإغفال الرجاء بمواعيد الله يحرمنا من حياة القداسة الكاملة الممنوحة لنا كوعد في يسوع المسيح: «الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء» (٥٣)، متوهمين أنه يمكننا أن نبلغ إلى الكمال المسيحي والقداسة الكاملة بجهادنا في الحاضر بهذا الجسد المعروف أنه جسد الخطيئة. فإذا اصطدمنا بالإخفاق نقع في اليأس ظانين أننا لا نصلح للطريق الروحي.

ولكن لأن الله عارف بضعفنا، فقد منحنا أن نعيش في رجاء حي بحياة كاملة مقدسة، عتيدة أن يهبها لنا بمقتضى رحمة يسوع المسيح عند استعلان مجده. **ووهبنا عربون هذه الحياة منذ الآن «بالوعد»** لنستخدمه كل حين فيكون مصدر قوة وعزاء وغلبة. هذه الحياة المقدسة الكاملة في المسيح هي التي **على أساسها نُمنح الآن مغفرة الخطايا** فنعيش فيها لحظات حقيقية!

بهذا الوعد تصغر قيمة إخفاقاتنا وتزداد قيمة نصرتنا، فلا يعود الإنغلاب قادراً أن يقنعنا بالفشل أو اليأس بل بالحري يجعلنا نرفع أعيننا بيقين إلى الوعد متحققين أن قداستنا هي في المسيح بل هي المسيح.

لذلك **فمواعيد الله ردٌّ على كل ضعف** نعانيه في الحياة الحاضرة **وتشجيع لجهاد صالح** لا يشوبه يأس. فالثقة بمواعيد الله قوة دافعة عظمى للحياة المسيحية تكتسح أمامها كل المعوقات التي تحاول أن تردنا عن المسير إلى الأمام مهما كانت ومن أي نوع كانت.

---

(٥٣) ١كو١ : ٣٠.

ومواعيد الله بالنسبة لجهادنا الروحي ومصارعتنا مع طبيعة الجسد والعالم هي بمثابة الدرع الواقي من سهام الشك القاتلة التي يرمينا بها العدو وقت انغلابنا وضعفنا.

مواعيد الله التي تقدمها لنا الكلمة في اختصار شديد وإبهام هي في الواقع سر النهاية الأخيرة الغالبة، الذي يسري تحت سطح الحياة الروحية التي نعيشها. والنفاذ إلى هذا السر واستطلاعه لا يتم إلا كنتيجة للمصادمة مع الواقع مصادمة إيجابية نكتشف فيها عجز كل الإمكانيات التي أُعطيت للإنسان في كل العصور حتى الآن سواء كانت طبيعية أو روحية لحل لغز الحياة أو للبلوغ إلى نهاية مقبولة، وحينئذ تظهر قيمة مواعيد الله كحلٍّ وحيد وضرورة حتمية يرتمي الإنسان في أحضانها بخبراته المؤلمة، بل وتجد فيها الخليقة كلها نهايتها المريحة بعد هذا الجذب المتلاحق بصُوَرِه الحزينة التي تحمل حالات لا نهاية لها من الفشل والعجز والتخلف.

لذلك فمواعيد الله الآتية هي البشارة المفرحة غاية الفرح، لأنها تحمل العتق النهائي للإنسان والخليقة كلها معه من آخر مرحلة من مراحل التغير الذي عانته طبيعتنا في مسارها نحو الروح.

أما القوة الفاعلة لتكميل المواعيد فهي ليست غريبة عنا بل هي كما أعلنها المسيح في داخلنا «ملكوت الله داخلكم» (٥٤). وقد أدت واجباتها فينا منذ البدء بواسطة الكلمة جاهدة في تنمية بصيرة الإنسان لكشف الحق وللسعي نحو الحرية بكل صورها الإيجابية للتخلص من ربقة الجهل الذي أنشأ للإنسان عبوديات مظلمة للروح والفكر والجسد.

---

(٥٤) لو١٧ : ٢١.

ولكن بالرغم من كل ما حصّله الإنسان إلى الآن، فلا يزال محجوراً على روحه تحت ادعاء لقمة العيش وتوزيع الإقتصاديات، وكأنما الإنسان قطيع ماشية نطعمه لنتخلص منه.

الإحساس بمواعيد الله وضرورتها يزداد في قلب الإنسان تأججاً بقدر ما ترق الروح فيه وتدرك عبوديتها.

ومجيء ابن الإنسان رهنٌ ببلوغ نقطة التقاطع بين الوقوع تحت أقصى حالات العجز والفشل في الواقع الملموس مع أقصى حالات الوعي الروحي وتقييم الحرية الحقيقية في الداخل. حينئذ يجيء الله بدعوة من الواقع الفاشل ومن الإدراك الواعي بالحق. فيرفع الإنسان إلى ما أدركه وعجز عن تحقيقه.

الإنسان لا يملك إلا أن يشعر أنه حقيقة ناقصة بدون مجيء المسيح واستعلان قوته ومجده، و يستحيل أن يرجو كماله بذاته في هذا الدهر. ومهما سعى الإنسان برضاه أو رغماً عنه إلى التغيير، فالجديد يحمل دائماً صورة القديم بعجزها وقصورها، حتى ولادة الإنسان الروحية أي ميلاده الثاني المحسوب أنه خليقة جديدة، الذي يتم له بقوة إلهية من فوق، فهو أيضاً لم يستطع — بسبب ثقل الجسد — أن ينفصل عن القديم انفصالاً كاملاً بل ظل حاملاً كل نقائصه وعجزه!

هذا الشعور بالنقص — حينما يتسلط عليه نور مواعيد الله الآتية ومجيء الرب — يتبدد في الحال، ويحس الإنسان منذ الآن بالعتق الكامل في شخص المسيح الذي سيحتوينا في داخله فيُبتلع نقصنا، وضعفنا لا يوجد إلى الأبد، حيث يسود الروح علينا كسيد وحاكم، **فلا نعود نتأمل ذواتنا أو عجزنا بل نتأمل كمال الله** و يصير الله فينا الكل في الكل.

لذلك فمواعيد الله التي سلَّمها لنا هي جزء لا يتجزأ من إيماننا وحياتنا. فالحياة المسيحية في مفهومها الكامل لا تعني فقط جهاد الحياة بالتقوى في هذا الدهر، بل أيضاً هبة حياة القداسة المكمَّلة بالمسيح إلى الأبد، والشركة في كل مواعيده وفي «المجد العتيد أن يُستعلن فينا» (٥٥) بواسطة مواعيده.

أي إن الحياة المسيحية لا تُرى فقط في وضعها المحدود في دائرة الصراع مع الزمن بإخفاقاتها التي لا تنتهي إزاء الشر والخطية والألم والموت، بل يلزم أن تُرى وتُعاش منذ الآن في وضعها الممجَّد مع المسيح وهي في أوج حرية الروح ومجد أولاد الله في بهاء التجلي والنصرة الكاملة واكتمال الخلاص والفداء في فرح وتسبيح وشكر أبدي.



---

(٥٥) رو ٨: ١٨.

• كلمة الله مجالٌ حيٌّ يلتقي فيه الإنسان مع خالقه سراً وفي هدوء، لذلك فبقدر ما نقترب من الكلمة نقترب من الله وبقدر ما نعيش فيها نعيش معه.

• وهذا الكتاب محاولة لجعل الكلمة قريبة لقلب الإنسان ومحبوبة، وواضح أن الكاتب يجهد نفسه أقصى الجهد ليعظّم كلمة الله في عين القارىء ويكرمها ويقدسها في كل قلب حتى يعيد للكلمة سلطانها ومجدها الأولين.

• إن طلبتنا من الرب يسوع كلمة الله ونور العقل الذي يضيء لكل إنسان يأتي إلى العالم، أن يستخدم كلمات هذا الكتاب ليلهب قلب القارىء بحب الإنجيل، ويفتح ذهنه لفهم كلمة الله كينبوع يرتوي منه كل حين.



إعادة الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٣

الثمن ٢,٠٠ جنيهاً